الفصل الثاني

مفهوم الدّبلوماسيّة الدّوليّة وأنواعها ونظريّاتها في الشّريعة الإسلاميّة والقانون الدّولي

2.1 مفهوم الدّبلوماسيّة وأنواعها ونشأتها وتطورها التاريخي في الشّريعة الإسلامية

2.1.1 التّعريف بالدبلوماسية وأهميتها ومصادرها في الشريعة الإسلامية

2.1.1.1 الفرع الأول: التعريف بالدبلوماسية في الشريعة الإسلامية

1- التعريف اللغوي للعلاقات: "العلاقات" جمع مؤنث سالم، مفردها: علاقة بفتح العين، أصلها اللغوي عَلِقَ الشيءَ عَلَقاً وعَلِقَ به عَلاقَةً وعُلُوقاً: لزمه[7]، والعِلاقة بالكسر تستعمل في المحسوسات، وبالفتح في المعاني. وفي الجمع علاقات، أي رابطة تربط بين شخصين أو شيئين علاقة عاطفية، وفي الصّحاح: العِلاقة بالكسر علاقة القوس والسوط ونحوهما، وبالفتح علاقة الخصومة والمحبة ونحوهما، وشيء بسببه يستصحب الأول والثاني، كالعملية والتضايف[8].

2- التعريف اللغوي للعلاقات الدبلوماسية: يلاحظ على صعيد اللغة العربية، أنه لا توجد ترجمة حرفية مرادفة لكلمة دبلوماسية، لذلك فإنه تستخدم هذه الكلمة في اللغة العربية كمفهوم يشير إلى علم أو أوصول إدارة العلاقات الخارجية بين الأمم والدول، حيث تعود لفظة دبلوماسية بأصل اشتقاقها إلى اللغة اليونانية من اسم دبلوما "*Diploma*"، الذي تشتق منه كلمة "*Diplome*" والذي يعني أساساً "الوثيقة الرسمية التي يصدرها أصحاب السلطة وتمنح حاملها مزايا معينة، ومع مرور الزمن انتقلت الكلمة إلى اللغات الحية، والتي منها

---

7. ابن منظور، محمد بن مكرم جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى. 1414 هـ. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر. ص. 256.
8. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي1987م. *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*. ط. 4. أحمد عبد الغفور عطار (المحقق). بيروت: دار العلم للملايين. ص. 1531.

اللغة العربية لتعبر عن مفهوم ومعنى يتخطيان اللفظ اللغوي أو الترجمة اللغوية[9].

بما أن اللغة العربية لا تعرف مصطلح الدبلوماسية لأنه مصطلح لاتيني، إلا أن العرب قد عرفوا مفهوم الدبلوماسية وقواعدها بقيمهم وأخلاقهم الإنسانية قبل أن تظهر في أوروبا بقرون عديدة، فعلى صعيد اللغة العربية يلاحظ أنه لا توجد ترجمة حرفية مقابلة ومناسبة لكلمة دبلوماسية، ولكن العرب استخدموا كلمتين عن النشاط الدبلوماسي أو الممارسة الدبلوماسية، فكانت كلمة "كتاب" للتعبير عن الوثيقة التي يتبادلها أصحاب السلطة فيما بينهم، والتي تمنح حاملها مزايا الحماية والأمان، وقد جاء استخدام كلمة "كتاب" عند معظم فقهاء العرب ومن بعد فقهاء المسلمين[10]، ففي كتاب السير الكبير للإمام الشيباني جاء فيما يؤخذ في دار السلام من أهل الحرب ما يلي: "أرأيت الرجل من أهل الحرب يوجد في دار الإسلام فيقول: أنا رسول الملك ويخرج كتاب الملك معه. قال: إذا عرفت أنه كتاب الملك كان آمناً حتى يبلغ رسالته ويرجع، وإن لم يعرف أنه كتاب الملك فهو فيء وجميع ماله"[11]. كذلك جاءت كلمة كتاب عند أبي يوسف في "الخراج" عندما يقول: " إن الولاة إذا ما لقوا رسولاً يسألونه عن اسمه، فإن قال: أنا رسول الملك بعثني إلى ملك العرب وهذا كتابه معي، فإنه يصدق ولا سبيل عليه"[12]. وإلى جانب كلمة كتاب عرف العرب كلمة "سفارة"، وكانت تستخدم عندهم بمعنى الرسالة أو التوجيه والانطلاق إلى القوم بغية التفاوض[13]. فالإسلام لم يقم على أنقاض حضارة سابقة له، بل إنه بذرة جديدة وحدث تاريخي متميز وتغيير جذري لحياة-البشر يصلح للجميع في أي زمان ومكان.

---

9. الشامي، علي حسن. 2007م. *الدبلوماسية: نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية*. ط. 3. بيروت: دار العلم للملايين. ص. 28.

10. الشامي، علي حسين. 2011م. *الدبلوماسية ونشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية*. ط. 5. عمان: دار الثقافة. ص. 33.

11. الشيباني، أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد. 1971م. *شرح السير الكبير*. صلاح الدين المنجد (المحقق). ج. 2. القاهرة: مطبعة شركة الإعلانات الشرقية. ص. 515.

12 أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري. 1980م. *الخراج*. مصر: دار الإصلاح. ص. 203.

13. المحمصاني، صبحي. 1972م. *القانون والعلاقات الدولية في الإسلام*. ص. 172.

ذلك لأنه أنشأ حضارة ومؤسسة متكاملة وأصلية غير مقتبسة من حضارة أخرى. ونظم حياة البشر بأدق تفاصيلها وفي مختلف المجالات. ولما كان الإسلام قد جاء بأحكام تفصيلية دقيقة في العبادات والمعاملات والسلوك الإنساني فإن فهم هذه الأحكام يتطلب من المخاطبين بها الوعي والإدراك وتوفّر قدر من الاستقرار والتقبل ليتمكنوا من معرفتها وتطبيقها على الوجه المطلوب.

وقد كلف الله تعالى رسوله النبي محمّداً – صلى الله عليه وسلم – بنقل هذه الأحكام إلى العرب، الذين تولوا نقلها إلى الناس كافة. وأن فهم هذه الأحكام لا يستقيم مع القوة والشدة والعنف ولا يأتلف وطبيعة الدعوة الإسلامية التي جاءت من أجل إنقاذ البشر من التخلف والظلم والضلالة والعبودية. بل لابد من استخدام الأساليب الهادئة السلمية التي تضمن إيصال أحكام الشريعة كما نزلت من الله تعالى. فالإسلام يخاطب عقول البشر، ومخاطبة العقول تنأى بطبيعتها عن استخدام السيف والعنف. ومن أسرار نجاح الدعوة الإسلامية أن الإسلام جاء بالأحكام التفصيلية لإسعاد البشر وبالوسيلة التي توصل إليهم هذه الأحكام، فاستخدمت النصيحة والمحاججة والجدل والتفاوض لإيصال الدعوة الإسلامية للناس كافة. وعندما تمكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – من إنشاء دولة المدينة كان لزاماً عليه أن يوطد الأمن والاستقرار فيه من أجل التفرغ لنشر الدعوة الإسلامية فعقد معاهدة سلام مع سكان المدينة من اليهود والمشركين، وبعد ذلك بدأت البعثات الدبلوماسية تنتشر في الوطن العربي والدول المجاورة لنشر الدعوة الإسلامية بالوسائل الدبلوماسية[14].

2.1.1.2 الفرع الثاني: أهمية الدبلوماسية في الشريعة الإسلامية

أولت العلاقات الدبلوماسية في الشريعة الإسلامية أهمية خاصة بسبب طبيعة الدعوة الإسلامية لبناء علاقات مع المسلمين ومع غيرهم من الشعوب الأخرى؛ وهذا النوع أُطلق عليه مجموعة الأحكام والقواعد

14. البخاري. د. ت. *صحيح البخاري*. رقم الحديث: 3932. المحقّق: الحديث صحيح.

التي تنظم علاقات المسلمين بغيرهم[15]، لذلك أصبحت للعلاقات الدبلوماسية في ظل العهد الإسلامي أهمية متميزة بسبب طبيعة الدعوة الإسلامية؛ بحيث احتل المبعوث الدبلوماسي مكانةً خاصةً عند المسلمين انطلاقًا من مبادئ الشريعة في نشر الدعوة الجديدة بأسلوب المفاوضة والإقناع، فنظرت إلى رسلها نظرة احترام واعتبرت الاعتداء عليهم اعتداءً على كرامة الأمة، كما أن الإسلام سعى للمسالمة أثناء المنازعات وتنظيم العلاقات في حال السلم والحرب، وكانت تنظم العلاقات الدبلوماسية من خلال الصلح والوساطة والتحكيم.

لم يستخدم فقهاء الشريعة الإسلامية مصطلح الدبلوماسية، إلا أنهم يعرّفون مفهومها بمصطلحات أخرى فيطلقون على القواعد التي تنظم العلاقات الدولية في وقت السلم وإرسال الرسل واستقبالهم بقواعد السّير، أو كتاب السّير، وهي تعني سياسة الرسول – صلى الله عليه وسلم – الراشدة أو قيادته الحكيمة أو تصرفه الكريم في السلم والحرب مع الأصدقاء والأعداء، وأخلاقه ومعاملاته لأصحابه، واختياره للرسل وعلمه وعدله ورحمته[16] ولقد بلور الإسلام العظيم مفهوم فن التعامل مع الغير، فقد بين القرآن الكريم أساس نشر الدعوة الإسلامية وأسلوب الإقناع بها في قوله تعالى ﴿ادْعُوا إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[17]، فالحكمة والموعظة الحسنة هما دستور التعامل ومخاطبة الغير، ولا نجاح للدبلوماسية إذا لم يتبع هذا الفن الاتصال مع الآخرين. ومن مظاهر الفن في العمل الدبلوماسي التي أرسى دعائمها ديننا الحنيف، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تستوي الْحَسَنَة وَلَا السَّيِّئَة ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أحسن فَإِذا الَّذِي بَيْنك وَبَينه عَدَاوَة كَأَنَّهُ ولي حميم﴾[18]، وقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً»[19].

15. عبد الشافي محمد، عبد اللطيف. 1428هـ. *السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي*. القاهرة: دار السلام. ص. 173؛ السمالوطي، نبيل. 1998م. *بناء المجتمع الإسلامي*. ط. 3. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع. ص. 31.

16. أبو شهبة، محمد بن محمد. 1970م. *السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة*. القاهرة: دار الطباعة المحمدية. ص. 12.

17. القرآن. النحل 125:16.

18. القرآن. فصلت 34:54.

19. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي. 1977م. *سنن الترمذي*. أحمد شاكر (المحقق). ج. 3. بيروت: دار إحياء التراث العربي. باب: ما جاء في معالي الأخلاق. ج. 4. ص. 370. رقم الحديث 2018. وصحّح محقّق الكتاب الحديث.

ولا شك أن الكياسة واللباقة والصدق والتواضع الكريم، والبعد عن الغيبة والنميمة من أخلاقيات حسن التعامل مع الغير، وقد تمتع النبي – صلى الله عليه وسلم – بالخبرة والتوفيق في أُسلوب نشر الإسلام، ومدى تأثير شخصيته في إدارة علاقات الإسلام الدولية في زمن السلم، واختياره الرسل لحمل رسائله للملوك والأمراء وشيوخ القبائل، وكيفية استقباله الرسل ومعاملتهم معاملة حسنة، وطريقة التفاوض معهم ومنحهم الامتيازات والحصانات، وعقد الصلح والهدنة والتحالف مع الآخرين وتسوية المنازعات بالوسائل السلمية، واختيار الولاة والقضاة في البقاع التي دخلها الإسلام[20]، وعلى هذا الأساس نظم المسلمون في العصر النبوي علاقاتهم مع غيرهم من الأمم والشعوب والقبائل، سواء في حال السلم أو في حال الحرب؛ تنظيماً رائداً راعياً ما كان مألوفاً من قيم العلاقات الدولية، والتي لا تتعارض ومفاهيم الدين الجديد، مع إضافة بعض القيم التي كان يفتقدها عرف العلاقات الدولية الذي كان سائدًا آنذاك. فقد مارس المسلمون الدبلوماسية بالمعنى والمضمون من خلال المفاوضات وإبرام المعاهدات، وتبادل المصالح، وما اتسمت به هذه العلاقات من فن الفطنة والذكاء والكياسة[21].

وكان ذلك واضحاً في دبلوماسيته – صلى الله عليه وسلم – حينما قرأ كتاب "مسيلمة الكذاب" ومدى رده التعسفي؛ حيث سأل صاحبيه عبد الله بن النواحة، وابن أثال عن رأيهما فيما قال صاحبهما على الرغم من شركه البين، فقالا: نقول كما قال؛ فردَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قائلا: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»[22]، ولو تأملنا هذا الرد لرأيناه ردًا دبلوماسيًا بليغًا، فقد كان بمقدوره – عليه الصلاة والسلام – أن يقتلهما أو يحبسهما، لكنه أعطى لنا وللبشرية كلها درساً مستفادًا في معاملة الموفد،

20. الشيباني، محمد بن الحسن. 1958م. *شرح السير الكبير*. ج. 1. صلاح الدين المنجد (المحقق). القاهرة: مطبعة مصر. ص. 296؛ وأبو عباه (أ)، سعيد محمد. 2009م. *الدبلوماسية تاريخها – مؤسساتها – أنواعها – قوانينها*. قلقيلية: دار الشيماء. ص. 215.

21. بلبكاي، جمال. 2014م. "الدبلوماسية في الشريعة الإسلامية". *الدبلوماسية العربية في ظل التحولات السياسية الراهنة*. الجزائر: سعيدة.

22. أبو داود. 2009م. *سنن أبي داود*. كتاب: *سنن أبي داود*. ج. 4. ص. 384. باب: الرسل. رقم الحديث: 2761. قال المحقّق: الحديث صحيح.

رغم غطرسته وخروجه على حد اللياقة في الحديث، فله في الإسلام حق الحماية والأمن.

مما سبق نلاحظ أن مصطلح السير في الفقه الإسلامي أوسع بكثير من مصطلح الدبلوماسية اليوناني المستخدم حالياً؛ فالسّير تعني إدارة سياسة الدولة الداخلية والخارجية، بينما تعني الدبلوماسية إدارة سياسة الدولة الخارجية. وإذا كان القانون الدولي العام مجموعة القواعد التي تنظم العلاقات بين الأشخاص القانونية الدولية في وقتي السلم والحرب، فإن فقهاء الشريعة الإسلامية يطلقون على هذه القواعد "بالسّير والمغازي". فالسّير تلك القواعد التي تنظم العلاقات في وقت السلم، أما المغازي فهي القواعد التي تنظم العلاقات في وقت الحرب، وهي القواعد التي يجب تطبيقها في وقت الحرب[23].

وبناء على تحديد الفقه الإسلامي لهذه العلاقة فإنها تنطبق بصورة أساسية مع المفهوم الدبلوماسي الحديث، من حيث الشكل؛ ذلك أن العلاقة الدبلوماسية في القانون الدبلوماسي المعاصر تقوم على العلاقة بين المرسل والرسول والمرسل إليه والرسالة، ولكنها تختلف من حيث الجوهر. فالمرسل في القانون السماوي هو الله – تعالى– بينما المرسل في القانون الدبلوماسي هو الملك أو الأمير أو الأشخاص، وأن الرسول في القانون السماوي هو النبي المرسل، بينما الرسول في القانون الدبلوماسي هو إنسان عادي وإن اتصف بمميزات معينة، والمرسل إليهم في القانون السماوي هم الناس كافة، بينما المرسل إليه في القانون الدبلوماسي هو شخص معين أو مجموعة من الأشخاص. والرسالة في القانون السماوي مصلحة عامة هي هداية الناس إلى طريق الحق، بينما الرسالة في القانون الدبلوماسي مصلحة خاصة[24]. من خلال ذلك نلاحظ مع اختلاف صفة المرسل والرسول إلا أن هذه العلاقة تتصف بما نطلق عليه في الوقت الحاضر بالعلاقات الدبلوماسية لأنها تتضمن مرسلاً ورسولاً مكلفاً بحمل رسالة للمرسل إليهم، وأن إيصال هذه الرسالة يتفق ومفهوم المبادئ الدبلوماسية الإنسانية القائمة

23. الفتلاوي، سهيل حسين. 1984م. *قانون الحرب*. بغداد: دار القادسية. ص. 15.

24. الفتلاوي، سهيل حسين. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية*. عمان: دار الثقافة للنشر والتوزيع. ص. 17.

على الأخلاق والفضيلة.

ومن أهم النقاط التي تشكل أهمية الدّبلوماسيّة في الشّريعة الإسلاميّة: بلور الإسلام العظيم مفهوم فن التعامل مع الغير، فقد بين القرآن الكريم أساس نشر الدعوة الإسلامية وأسلوب الإقناع بها، فالحكمة والموعظة الحسنة هما دستور التعامل ومخاطبة الغير، ولا نجاح للدبلوماسية إذا لم يتبع هذا الفن في الاتصال مع الآخرين. كما نظم المسلمون في العصر النبوي علاقاتهم مع غيرهم من الأمم والشعوب والقبائل، سواء في حال السلم أو في حال الحرب؛ تنظيماً رائدًا راعياً ما كان مألوفًا من قيم العلاقات الدولية، والتي لا تتعارض ومفاهيم الدين الجديد، مع إضافة بعض القيم التي كان يفتقدها عرف العلاقات الدولية الذي كان سائدًا آنذاك، فالإسلام سعى للمسالمة أثناء المنازعات وتنظيم العلاقات في حال السلم والحرب، وكانت تنظم العلاقات الدبلوماسية من خلال الصلح والوساطة والتحكيم.

2.1.1.3 الفرع الثالث: مصادر الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي – عليه الصلاة والسلام –

يُقصد بمصطلح "المصادر" في فقه القانون الدولي؛ الوسائل والعوامل التي أنشأت القاعدة القانونية الدولية والتي تطبق على الوقائع؛ وهي متدرجة حسب قوتها[25]، ويقابل مصطلح المصادر في القانون الدولي مصطلح "أدلة الأحكام" في الشريعة الإسلامية؛ وهي بصورة عامة ما نزل به الوحي المتمثل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما أضافه فقهاء الشريعة من أدلة جديدة لمواجهة التطورات الجديدة، وهي الأجماع والقياس والاستحسان والاستصحاب والعرف، وما شرع من قَبلنا ومذهب الصحابة[26]. أما في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – فإن المصادر الرئيسية للشريعة كانت القرآن والسنة النبوية فقط. وتتضمن السنة النبوية

25. ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك المعامري. 1955م. *السيرة النبوية*. مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي (المحققون). ط. 2. ج. 1-2. مصر: مصطفى البابي الحلبي. ص. 3.

26. عبد الواحد، عبد الرحمن. 1987م. *الأنموذج في أصول الفقه*. بغداد: جامعة بغداد. ص. 69.

أحاديث وأفعال النبي – عليه الصلاة والسلام –، وكذلك شخصيته الخاصة، وما طبّقه من قواعد دبلوماسية في تعامله فإنها تُعد أيضاً من التشريع الواجب اتباعه وتطبيقه.

2.1.1.3.1 أولاً: القرآن الكريم

كل كلمةٍ وردت في القرآن الكريم إنما هي تعبر عن حالة دبلوماسية، بما في ذلك القواعد المتعلقة بتنظيم القتال والحرب، فقد وردت محاطةً بالعفو والرحمة والشفقة وإحقاق الحق وتطبيق العدل، ومن الصعوبة تفسير جميع النصوص الواردة في القرآن الكريم في هذا المجال؛ ذلك لأن الهدف الذي جاء به القرآن الكريم لا يمكن تطبيقه إلا باتباع السبل الدبلوماسية، فالقرآن الكريم كلّه رسالة يخاطب الله تعالى فيها البشر جميعاً وهم المرسل إليهم، وحامل الرسالة هو رسول من الله تعالى إلى البشر ليبلغهم جميعاً بهذه الرسالة، وهذا هو جوهر القانون الدبلوماسي في الوقت الحاضر؛ فهو ينظم العلاقة بين المرسل والرسول والمرسل إليه، وحقوق وامتيازات الرسول الذي يحمل هذه الرسالة. فقد أطلق القرآن الكريم مصطلح "الرسول" على مهمة النبي – صلى الله عليه وسلم – وورد هذا المصطلح في العديد من الآيات، وهو يُطلق على الشخص الذي يقوم بمهمّة حمل رسالة إلى شخصٍ آخر، ويتولى الرسول التعبير عن مرسله، فكلّ ما يقول أو يعبر عنه لا يُنسب إليه وإنّما لمرسلِه. وكان اختيار الله تعالى لهذا المصطلح تقديراً لنظرة العرب للرسول كونه مكلفاً يحمل رسالة، وإن احترامه وتقديره وَاجبان نظراً للمهمة التي يقوم بها، فلا يجوز الاعتداء عليه، بل لابد من احترامه وتقديره.

ولما كان الإسلام لا يتحدد بالإيمان بالله وحده، لأنه عقيدة متكاملة تنظم سلوك الحياة، فإن إيصال هذه القواعد للناس لا يتحقق إلا باتباع أسلوب التفهيم والإقناع؛ لإزالة ما علق بعقولهم من أدران ومعتقدات، ومن تم غرس القواعد الجديدة في التوحيد والسلوك الإنساني المتضمنة للعبادات والمعاملات في النفوس. ولما كانت جميع الآيات التي جاءت في القرآن الكريم نصوصاً دبلوماسية تحدد الإيمان بالله وقواعد السلوك

الإنساني للناس كافةً؛ فإن إيصال هذه القواعد لا يمكن أن يتحقق إلا باتباع الأسلوب الدبلوماسي أيضاً. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[27]، وقد جاءت القواعد الدبلوماسية في القرآن بحق النبي – صلى الله عليه وسلم – على ثلاث أنواع:[28]

1– قواعد دبلوماسية جاءت بحق النبي – عليه الصلاة والسلام –، ولكنّها تُعد تشريعاً لجميع المسلمين منها قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[29]، فهذه الآية جاءت بحق النبي محمد – عليه الصلاة والسلام – إلا إنّها تُعد تشريعاً لجميع المسلمين.

2– ما جاء للمسلمين بصورة عامة، وشمل النبي — صلى الله عليه وسلم – من باب أولى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[30]، فهذه الآية موجهة للمسلمين عموماً إلا أن النبي – عليه الصلاة والسلام – أولى بتطبيقها.

3– ما جاء للنبي – صلى الله عليه وسلم – من قواعد دبلوماسية خاصة به وحده كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾[31].

2.1.1.3.2 ثانياً: السنة النبوية

وهي كل ما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفة، وتُعد جميع أقواله وأفعاله قواعدَ دبلوماسية سواءً تلك التي نزل بها الوحي أو المتعلقة بشخصهِ بصفةٍ خاصة؛ أي المتعلقة بشخصهِ كإنسان. حيث إنّ الأحكام التي جاءت بحق النبي – عليه الصلاة والسلام – تضمنت الأنواع الآتية:

---

27. القرآن. النحل. 125:16.
28. الفتلاوي، سهيل حسين. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية*. ص. 20.
29. القرآن. عبس. 1:80.
30. القرآن. الأحزاب. 70:33.
31. القرآن. الأحزاب. 33 :50.

1- الأحاديث والأعمال الواردة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – والتي تُعد تشريعاً للمسلمين أيضاً كونه نموذجاً للبشر لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[32]، ومنها الأحاديث والأعمال المتعلقة بالدبلوماسية كاختياره للرسل الذين أرسلهم للملوك والأمراء، واستقباله الرسل الأجانب وطريقة معاملته لهم، فهذه الأحاديث والأعمال التي قام بها النبي – صلى الله عليه وسلم – تعد تشريعاً للمسلمين جميعاً[33].

2- الأحاديث التي وردت عن النبي – عليه الصلاة والسلام – والموجهة للمسلمين جميعاً فإنه ملزم بتطبيقها هو قبل غيره، ومن ذلك قوله: «إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه»[34]، فهذا الحديث عام يحدد سلوك المسلم في موضوع معين، كما أنّه في الوقت نفسه يشمل النبي – عليه الصلاة والسلام – بوصفه الأسوة الحسنة، وقد يطبقه بصورةٍ أكثر مما يطبقه المسلم المخاطب وإن روي أنّه لم يتثاءب قطّ، كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في أثر مرسل[35]، ولم يطلب من المسلمين إلا ما ورد لهم من تشريع لدفع الحرج عنهم، ومثل هذا الحديث يطبق على الدبلوماسي بشكل خاص، لأنه أجدر بتطبيقه.

3- الأمور الخاصة به كإنسان مثل: أكله وملبسه وخصوصياته، فهذه لا تعد تشريعاً للمسلمين وإنّما هي من الأمور الخاصة به.[36]

2.1.1.3.3 ثالثاً: الأعراف والتقاليد الدولية السائدة في عهد النبي – علية الصلاة والسلام

إنّ الأعراف والتقاليد الدولية السائدة في عهد النبي – علية الصلاة والسلام – والتي لم يُحرِّمها الإسلام تُعد تشريعاً للدبلوماسي، خاصةً تلك التي طبّقها في تعامله مع الدول؛ كختم المذكرات والأمان بالنسبة للرسل

32. القرآن. الأحزاب. 33 :21.

33. ابن حنبل، أحمد. 2001. *مسند الأمام أحمد بن حنبل*. شعيب الأرناؤوط وآخرون (المحققون). ج. 27: 244. رقم الحديث: 16694. المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. إسناده ضعيف؛ لجهالة سعيد بن أبي راشد.

34. ابن ماجة. 1952م. *سنن ابن ماجة*. ج. 1: 310. باب ما يكره في الصلاة. رقم الحديث: 968. قال المحقّق: الحديث صحيح.

35. الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني. د ت. *سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني*. ج. 1: 228. باب بناء المساجد في الدور. رقم الحديث: 234.

36. المناوي، محمد عبد الرؤوف ضبطه. 1972م. *فيض القدير شرح الجامع الصغير*. ج. 1. بيروت: دار الكتاب العلمية. ص. 314.

ومعاملتهم معاملةً حسنة، فقد جاء في كتاب السير "فإنّ الرسول آمن من الجانبين، هكذا جرى الرسل في الجاهلية"[37]؛ وهذا يعني أن الرسل كانوا يتمتعون بالحصانة قبل الإسلام، إضافة إلى القاعدة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية "الأصل في الأشياء الإباحة"[38]، ومن ذلك أيضاً الرسائل التي أرسلها النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الملوك والأمراء لما فيها من قواعد دبلوماسيةٍ؛ كأسلوب التخاطب وطريقة كتابة الرسائل وأصول المجاملات الدولية، التي كانت سائدة بين العرب والدول المجاورة[39]، أمّا أدلة الأحكام الأخرى كالإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها من الأدلة الأخرى، فإن هذه الأدلة لم تكن موجودة في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم –، وقد ظهرت بعد وفاته، بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية.

2.1.2 أنواع الدبلوماسية في الشّريعة الإسلامية

بظهور الإسلام تحققت للعرب الوحدة السياسية، وتأسست دولة الإسلام في المدينة المنورة برئاسة أفضل الخلق وأشرفهم محمد – صلى الله عليه وسلم –، وبقيادته أصبح للعرب المسلمين كيانٌ موحد وقوة منيعة، ومن ثمَّ تطورت علاقات الدولة الإسلامية العربية بجيرانهم، ومن علاقات تجارية محدودة إلى علاقات دولية ودبلوماسية أفسح. فأصبحت الدبلوماسية إحدى الوسائل الهامة في تنفيذ سياساتهم الخارجية، وهكذا اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وزادت علاقاتها بالعالم، وهذا أدى إلى تطور في المفاهيم الدبلوماسية عند العرب المسلمين على مر العصور، وهذا التطور في المفاهيم والوسائل والأغراض اختلف من عصر إلى عصر نظراً لظروف كل دولة وعلاقاتها الخارجية.

37. الشيباني، محمد بن الحسن. 1958م. *شرح السير الكبير*. ج. 1. ص. 296.
38. السيوطي، الجلال. 1983م. *الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية*. بيروت: دار الكتاب العلمية. ص. 60.
39. جواد، علي. 2007م. *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. ج. 4. بغداد: جامعة بغداد. ص. 171.

فعند متابعة أشكال الدبلوماسية الإسلامية في عهد الرسول – عليه الصلاة والسلام – نجد أن أول استخدامات الدبلوماسية كان للدعوة إلى الدين الجديد، وإعلان الحرب دفاعاً عنه، وعقد المعاهدات مع القبائل المجارة أو التبليغ بالإنذار لبدء القتال، أو لتسوية المشاكل الناجمة عن الحرب كالهدنة أو الصلح، أو مبادلات الأسرى، أو مَا يتطلب ذلك من العلاقات الخارجية مع الدولة الإسلامية.[40]

وكان لقيام هذه الدولة وامتداد نفوذها بالتدرج إلى معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم –، ومن ثمّ تدرجت في عهد الخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم – إلى الفُرس شرقاً وبلاد الشام ومصر وأجزاء من أفريقيا غرباً، ومن ثمّ تدرجت إلى ما وصلت إليه في العهود اللاحقة للعهد النبوي، ثمرة جهودٍ كبيرة من سياسية وتشريعية. وكان حصيلة النشاط الدبلوماسي الذي اضطلع به الرسول – عليه الصلاة والسلام – والخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم، مجموعة لا حصر لها من الرسائل والصكوك والمعاهدات التي تحدد علاقات الدولة الإسلامية مع القبائل المختلفة، وممثلي الدول والأمصار، والمدن المفتوحة والملوك والرؤساء والزعماء.

2.1.2.1 الفرع الأول: البعثات الدبلوماسية الإسلامية

إنّ العوامل التي أنشأت قواعد السلوك الدبلوماسي عند العرب في الجاهلية من عاداتٍ وتقاليد وعُرفٍ لم يتجاهلها الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا الخلفاءُ من بعده – رضي الله عنهم –، فقد تأثرت الدبلوماسية الإسلامية في نشأتها بالعديد من العوامل مثل: القرآن الكريم والسنة المطهرة، والوجود الإسلامي والاتصال بالدول المجاورة؛ سواءً كانت عربية أو أجنبية، إضافةً إلى العرف العربي الجاهلي الدبلوماسي. فالإسلام وضع قواعد التعامل بين الناس كأفرادٍ، وقواعدَ التعامل بين الجماعاتِ المختلفةِ في الحدود التي جاء بها القرآن الكريم

40. فودة، عز الدين. 1989م. *النظم السياسية*. القاهرة: مكتبة عين شمس. ص. 122.

والسنّة النّبوية في السّلم والحرب على حدٍ سواء. والدبلوماسية الإسلامية كما ذكرت الدراسة في السابق بدأت مع بداية العهد النبوي، ثم تتابعت وتطورت حتى سبقت دبلوماسية الدول المسيحية في ذلك الوقت، وفي هذا يقول أحد الباحثين: "ظهر الإسلام بروحه السمحة، وكان ظهوره في زمان كانت فيه الحرب هي القاعدة العادية للعلاقات بين الجماعات المختلفة، فالحرب ظاهرة مستمرة ودائمة في تاريخ البشرية"، أمّا الإسلام فينظر إلى الحربِ نظرة استثناء، فالقاعدة هي السّلم، حيث قال الرسول – عليه الصلاة والسلام –: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ»[41]. فالإسلام حريصٌ على منع الحربِ، وحريصٌ على أن لا يُقتل من قاتل المسلمين، إلا إذا كانت هناك ضرورةٌ مباشرة مع احترام مبادئ الإنسانية والفضيلة في الحرب، ومع إجازة الأمانِ لمن يطلبه حتى لو كان معطي الأمان جندياً اعتيادياً وليس قائداً أو حاكماً. وتنقسم البعثات الدبلوماسية الإسلامية إلى قسمين:

2.1.2.1.1 القسم الأول: البعثات الخاصة "المؤقتة"

تعريفها: "هي بعثةٌ مؤقتة ذات صفة تمثيلية، موفدة من دولةٍ إلى دولةٍ أخرى بموافقة هذه الأخيرة؛ لتعالج معها قضايا محددة أو للقيام لديها بمهمة محددة"[42].

انكبت لجنة القانون الدولي التابعة للأمم المتحدة منذ عام 1959م وبعد أن انتهت هيئة الأمم المتحدة من إصدار اتفاقيتي فيينا للعلاقات الدبلوماسية سنة 1961م والعلاقات القنصلية لسنة 1963م، على تقنين العمل وتنظيم قواعد وأحكام الدبلوماسية المؤقتة وأصدرت عام 1969م اتفاقية البعثات الخاصة المؤلفة من (53) مادة، والملحقة ببروتكول اختياري يتعلق بالتسوية الإلزامية للنزاعات، والمؤلف من تسع مواد.

41. البخاري، محمّد بن إسماعيل. د. ت. *صحيح البخاري*. رقم الحديث: 3024.

42. المادة الأولى من اتفاقية البعثات الخاصة لسنة 1969م. انظر: الأمم المتحدة. 1985م. *اتفاقية البعثات الخاصة لسنة 1969م*. نيو يورك: الأمم المتحدة.

وهكذا أُصدرت هذه الاتفاقية التي استقت أحكامها من أحكام إتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961م، لكن دون إقفال إن البعثات الخاصة سواءً من حيث مهامها، أو من حيث طبيعتها، هي تنظيم يختلف عن البعثات الدائمة. حيث حددت هذه الاتفاقية[43] الخصائص التي يجب أن تتوفر في البعثة الخاصة والتي تدور حول الصفة المؤقتة غير الدائمة، وامتلاكها للطابع التمثيلي كبعثة دبلوماسية دائمة، والتي تُشكل أحدَ مرافق الدولة لتنفيذ سياساتها الخارجية، وهذا المبدأ تعمل به كل دول العالم اليوم.

ولكي يتضح موضوع الدبلوماسية المؤقتة في صدر الإسلام، سوف تُدرج هذه الدراسة مثالاً لهذا النوع من الدبلوماسية: رُسل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى أمراءِ العرب، وملوك الدول المجاورةِ مثل: سفارته إلى هرقل إمبراطور الروم، وكسرى ملك الفرس، ونجاشيّ الحبشة، والمقوقس حاكم الإسكندرية، والحارث الغساني ملك الحيرة، والحارث الحميدي ملك اليمن[44]. مما سبق يظهر لنا أن الإسلام قبل أربعة عشر قرناً عرف نظام الدبلوماسية المؤقتة، فكان أسبق من العالم المتمدن بقرون عدة، حيث إنّهم لم ينظموا قواعد الدبلوماسية المؤقتة إلا عام 1969م في الاتفاقية السابق ذكرها.

2.1.2.1.2 القسم الثاني: البعثات الدائمة

من الناحية القانونية تُعرف بأنّها: "هيئة لشخص القانون الدولي، تؤسس بصورة دائمة لدى شخص قانون دولي آخر".[45]، فنجد أنّ أوروبا منذ القرن الخامس عشر بدأت باعتماد بعثات دائمة لدى بعضها البعض، وقد انشأت أول بعثةٍ دبلوماسية دائمة في "جنوا" عام 1450م؛ وكانت عبارةً عن وفدٍ أرسله دوق

43. الشامي، علي حسين. 1990م. *الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية*. بيروت: دار العلم للملايين. ص. 126-127.

44. ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك بن هشام المعامري. 1995م. *السيرة النبوية*. محمد بيومي (المحقق). ج. 4. المنصورة: مكتبة الإيمان. ص. 175.

45. الشامي، علي حسين. 1990م. *الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية*. ص. 209.

ميلانو فرانشيسكو سفورزا إلى جنوا[46]، وهذا مثالٌ ليس حصراً لبداية التمثيل الدائم في أوروبا. أمّا في العالم الإسلامي؛ فقد اهتمت الدولة الإسلامية بهذا الشكل الدبلوماسي منذ الخطوات الأولى لتأسيسها، فقد وضع الرسول – عليه الصلاة والسلام – لبنةَ الأساس لهذا الشكل الدبلوماسي الدائم، حتى تسير الدولة الإسلامية فيما بعد بأهداف مغايرة لما سبق في الجاهلية، ولعل من أهمها الدعوة إلى الدين الإسلامي ونشره في الأرض. فقد بعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – مصعب بن عمير بن هاشم، ليعلّم أهل المدينة أمور دينهم قبل هجرة الرسول –عليه الصلاة والسلام –، وعندما وصل مُصعب المدينة أصبح يزوره أُمراء وأبناء المدينة، فأكرموا منزلتهُ وكان يقيم صلاة الجُمعة، ويعلّمهم أُمور دِينِهم مدة سنةٍ كاملة قبل الهجرة[47]، وكذلك أرسل مُعاذ بن جبلٍ بعد الهجرة ليعلّم أهلَ اليمن أمور دينهم، وهذا الشكل الدبلوماسي الدائم كان من أهم وظائفه نشر الدين الإسلاميّ والدعوة إليه – الأمر الذي تجاهلته البعثات الدبلوماسية الأخرى – وتمثيل الرسول – عليه الصلاة والسلام – في المناطق التي بعثَ إليها هذه البعثات، وكذلك جعل العباس في مكة المكرمة، والمنذر بن عمر بن مساعد في نجد؛ وذلك لجمع المعلومات واطلاع الرسول – صلى الله عليه وسلم – على سير الأمور في مناطقِ عملهم، وهي مهمةٌ تشبه عمل أو مهمةَ السفير في الوقت الحاليّ الذي يتابع ما يجري داخل البلد الذي يعمل فيه، ثم يرسل تقريره بذلك إلى حكومته. وكذلك تطوّر هذا الشكل للدبلوماسية في الدول الإسلامية بعد الرسول، حتى وصل عدد أعضاء البعثة الدائمة في العهد الدبلوماسي ما يزيد على مائة وخمسين شخصاً، كما هو الحال في بعض السفارات. وتتبع الدول الحديثة ما يتبعه القدماء المسلمون، من وضع أشخاصٍ فنيّين في البعثة من عسكريّين، وملحقين ثقافيين وصحافيين...الخ[48].

كانت الدبلوماسية الإسلامية سبّاقةً للبعثات الدائمة قبل أن يعرف الغرب عامة، وبناءً على ذلك فإن

46. بركات، جمال. 1985م. *الدبلوماسية ماضيها وحاضرها ومستقبلها*. الرياض: دار الفرزدق. ص. 39.
47. الفتلاوي، سهيل حسين. 1990م. *تطور الدبلوماسية عند العرب*. بغداد: دار القادسية للطباعة. ص. 72.
48. التابعي، محمد. 1988م. *السفارات في الإسلام*. القاهرة: مكتبة مدبولي. ص. 84-85.

العرب في عهد النبي – عليه الصلاة والسلام – امتازوا بتفوقهم الدبلوماسي، وعرفوا أشكالاً من الدبلوماسية بصورة لم تتوصل إليها المجتمعات الأوروبية المعاصرة لعهد النبوة والعهود اللاحقة له.

2.1.2.2 الفرع الثاني: الدبلوماسية الوقائية في الشريعة الإسلامية

من منطلقِ السّلم والسّلام كانت معاهداتُ المسلمين مع غيرهم، والّتي بها ومن خلالها يصير الفريقان المسلمون مع غيرهم في مرحلة سلم، أو مهادنة وموادعة. وإذا كان الأصل في العلاقة هو السّلم، فالمعاهدات تكون هي العلاج السلمي لإنهاء حربٍ عارضة والعودة إلى حال السلم الدائم، أو أنها تقريرٌ للسلم وتثبيت لدعائمه، لكيلا يكون من بعد ذلك العهد احتمال اعتداء، إلّا أن يكون "نقضاً للعهد". وعبر عصورٍ طويلة مارست الدول الإسلامية توقيع الاتفاقيات والمعاهدات مع الدول غير الإسلامية، وتضمنت تلك الاتفاقيات التزامات وقواعد وشروطاً ومبادئ عديدة، بشكل يمثلُ تَطَوراً في القانون الدولي الإسلاميِ، وفيما يلي إيضاح عن طبيعة التعامل الدبلوماسي للمسلمين مع غيرهم، من خلال إنشاء مصالحات أو معاهدات أو اتفاقيات، سواء في حالة السلم أو الحرب، والتي سميت في العصور الحديثة "بالدبلوماسية الوقائية"؛ نسبةً لتطور المصطلحات السياسية واندراجها في قوانين دولية نظمت علاقات الدول فيما بينها.

2.1.2.2.1 أولاً: تعريف الدبلوماسية الوقائية في الشريعة الإسلامية

إنّ مصطلح الدبلوماسيةِ الوقائيةِ مصطلحٌ حديثٌ في العلاقات الدولية والدبلوماسية؛ إذ إنّ العلاقات بين الدول قديماً كانت تعتمد على نوعٍ من التعامل كوسيلة اتصال وتفاهم بينها؛ كالتفاوض وعقد المعاهدات والتعامل السلمي، ولم تكن هذه العلاقات منتظمة وملزمة في بادئ أمرها، لكن مع نمو التعامل الدولي سار العُرف تدريجياً، واستمر حتى نشأت مفاهيم جديدة تسمى "الدبلوماسية الوقائية". بيد أن جوهر هذا المصطلح يدل على التعامل السلمي بين الدول ومنع نشوب النزاعات والصراعات من خلال المعاهدات والاتفاقيات،

وهذا النوع من التعامل قد تعارف عليه القوم في العصور الإسلامية وساروا في نهجه، وفي هذه الدراسة وإن كانت تَستخدم اللفظ الحديث لكن ليس بمنئً عن جوهر المفاهيم والمصطلحات العربية الإسلامية الدالة في ثناياها على مصطلح "الدبلوماسية الوقائية" الحديثة، وبناءً على ذلك سيشرع الباحث في بيان مدلول هذا المصطلح في الشريعة الإسلامية.

الدبلوماسية الوقائية في مدلولها تُعرّف على أساس أنها تعبيرٌ عن إرادة الأطراف إنشاء المعاهدات والاتفاقيات من أجل السلم؛ لذا سنعرفها على اعتبارها اتفاقيات ومعاهدات:

1- تعريف المعاهدات: ومفردها عهد:

لغةً: ورد في لسان العرب لابن منظور، في مادة عهد، قال: قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[49]، وقال الزجاج: قال بعضهم: "العهد كل ما عوهد عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد وكذلك كل ما أمر الله به في هذه الآية ونهى عنه".[50]

اصطلاحاً: العهد أو الميثاق في فقهنا الإسلامي له معنى أعمُّ أو أوسع من كلمة "معاهدة" في القانون الدولي الوضعيّ. ويُثير مصطلح "عهد" جملة معانٍ وإشكاليات، وهو عند مختار الصحاح: "هو كل ما عوهِد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد"، والعهد: الوصية، يُقال: عَهِد إلَيَّ في كذا؛ أي أوصاني، والعهد: الذي يُكتب لِلوُلاة وهو مشتق منه، والجمع عهود، والعهد: الموثِق واليمين يحلف بها الرجل يقول: علَّي عهد الله وميثاقه، والعهد: الأمان، وكذلك الذمّة، والعاهد: الذمي، وأهل العهد: أهل الذمة. والمعاهدة والاعتهاد والتعهد واحد، وهو إحداث العهد بما عَهدتَه. إذا كانت المعاهدة تشير إلى وجود عقدٍ أو اتفاق بين طرفين أو أكثر، فإن العهد قد يكون تصريحاً أو تعهداً أو وصيةً من قائدٍ لجنده، أو من خليفةٍ لشعبه أو لجماعة

49. القرآن. الإسراء. 34:17.

50. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. 1986م. *مختار الصحاح*. بيروت: مكتبة لبنان. ص. 193.

من الناس، هذا مع الإشارة إلى أن العهد غالباً ما يحمل معنى المعاهدة، كما تناول معظم الكتّاب والفقهاء، وأساس العهد أو المعاهدة هو الوفاء بمضمونهما، وعلى ذلك فإنّ أساس الإلزام بالمعاهدات هو الوفاء بالعهد. جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[51].

وجاءتِ السنّة النّبوية بذلك أيضاً، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «إنَّ خِيارَ عِبادِ اللهِ الموفونَ المطَيّبونَ»[52]. ولقد أوفى بعهوده جميعاً حتى مع المشركين، وعلى ذلك فإن الوفاء بالعهد أمر فيه إجماع عند فقهاء المسلمين كافةً وهو أساس الإلزام.

نعود إلى العهد بمعنى التصريح أو التعهد أو الوصّية... فهو يُلزم صاحبه دائماً انطلاقاً من العقيدة والشريعة، وعلى سبيل المثال: عهد الرسول – عليه الصلاة والسلام – إلى يهودِ المدينة بعد معاهدته معهم على حسن الجوار وتنظيم السلم بينهم وبين المسلمين، جاء في ذلك العهد: «لكم ذمة الله وذمة رسوله على أنفسكم ودينكم وأموالكم ورقيقكم، وكُل ما ملكت أيمانكم، لا يطأ أرضكم جيش ولا تحشدون ولا تحشرون... ومن سافر منكم فهو في أمان الله وأمان رسوله»[53] تظهر الحرية الدينية في هذا العهد، واحترام العلاقات السلمية التي هي أساس العلاقات الدولية.

2- أهمية المعاهدات والمواثيق ومشروعيتها:

تضفي المعاهدات والمواثيق على أعمال الأمم والشعوب والدول والأفراد عنصر الثّقة والاطمئنان، وتعمل على تخفيف حدة التوتر في العالم، وتكفل إلى حدٍ بعيدٍ تنفيذ الشروط والبنود، وتحقيق المصلحة في وقت محدد،

51. القرآن. النحل. 91:16.

52. الأصبهاني، أبو نعيم بن عبد الله بن أسحاق. 1974م. *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*. ج. 10. بيروت: دار الفكر للطباعة. ج. 10: 289. باب محمد بن يعقوب ومنهم العارف بالأصول العازف. رقم الحديث: 290. صحّحه الألبانيّ.

53. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. د.ت. *صحيح مسلم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. رقم الحديث: 1766.

يعود على الطرفين بالخير والهدوء والراحة النفسية والاجتماعية. وبالمعاهدة يحل مبدأ السِّلم محل الحرب، والأمنَ محل القلق والخوف، والحب والصفاء بدل الكراهية والكيد، وينعم الناس بنعمة الحرية التي لا قيود عليها، فيتفرغون لشؤون المعيشة، وتقدم المدنية والعمران، وتنشيط الصناعة وتطورها وتوجيهها لخدمة الإنسان وصالحه ونفعه، ولإنعاش الزراعة وحفظ المواسم، وتنمية التجارة، وفتح الأسواق أمام الصادرات والواردات، وتبادل المنتجات؛ فتكون المعاهدة أداة تفاهم وودّ وتقدم وحضارة، ورفاه وسعادة.

والمعاهدة فضلاً عن كل ذلك أداةٌ حاسمة وموثقة لتنمية العلاقات الدولية والدبلوماسية، وفض المنازعات والخصومات الخارجية؛ لذا عظّم الإسلام العهود والمعاهدات ورغب فيها، وشرّعها وسيلة متعينة لتنظيم العلاقات الخارجية، وآثر فض المنازعات الجماعية بالوسائل السلمية، سواء في داخل الدولة المسلمة أو خارجها، ولتحقيق الأغراض الكريمة والغايات الإنسانية النبيلة، بل إنّ نشر الدعوة الإسلامية في أرجاء المعمورة لا يتم إلاّ في ظلّها وفي ربوع الأمن والسّلام وإشاعة الاستقرار والرخاء المتحقق بها. والنصوص الشرعية في الإسلام كثيرةٌ دالة على مبدأ مشروعية المعاهدات مع الأعداء حال السلم أو الحرب، في إطارٍ من الشروط المتفق عليها بالتراضي والاختيار، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[54]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾[55]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[56]، وهذا كلّه دليلٌ في الشريعة الإسلامية على قُدسية المعاهدات ووجوب احترامها وإلزام الوفاء بها، قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِداً، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ

54. القرآن. المائدة. 1:5.

55. القرآن. الأنفال. 72:8.

56. القرآن. التوبة. 4:9.

شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[57].

3- الوفاء بالعهد:

الوفاء بالعهود والمواثيق فرض واجب لازم في الشريعة الإسلامية كأداء الفرائض الأخرى من العبادات وغيرها، فعلى المسلمين تنفيذ التزاماتهم التي تعاهدوها في معاهداتهم دون تلكؤٍ ولا تباطؤٍ ولا تسويفٍ، ولم يسمح الإسلام بالغدر والخيانة أو نقض العهد والتحلل من الالتزامات أو بنود المعاهدة، لأن ذلك شيءٌ مُهين يخلّ بالثّقة والاحترام، ولأن المسلمين يمثلون سمو الرّسالة الإلهية وشرف الكلمة النابعة من الدين. لذا لم تكن المعاهدات في الإسلام مجرد قصاصة ورق، كما هو الشأن المعروف عند الدّول غير الإسلامية في الماضي أو الحاضر، ولا وسيلةً لخداع العدو ولا ستاراً لتنفيذ أغراض معينة، ولا شعاراً لفرض القوي سلطانه على الضعيف أو المغلوب كما يفعل غير المسلمين عادةً، حتى إذا قَوِي الضعيف نبذها، وقاتل للتحلل من قيودها والتخلص من سلطة العدو الأقوى، وكانت أيضاً عند غير المسلمين صورة أو مظلة لقوة الأقوياء، لإملاء شُروطهم غالباً وليست إجراءً لتنظيم السلم العادل، وإنّما كانت المعاهدات في شريعة الإسلام وتاريخ المسلمين مصُونة عن أيّ غدرٍ أو خداعٍ أو قهرٍ، أو لتحقيق مصلحةٍ ماديةٍ رخيصة، أو من أجل فتح منافذ أسواقٍ لتصريف السلع والمنتجات الصناعيةِ، وفائض الزراعة، أو المواد الاستهلاكية الزائدة عن الحاجة، وبشرط عدم التأثير على أسعار السلعة محلياً، وإلا أُلقي الفائض في البحار، ولم يُصدَّر لأحد، كما تفعل بعض الدول الغربية المعاصرة من إلقاء فائض البُن مثلاً في البحر، ولم يستثنِ الفقهاء المسلمون من مبدأ الوفاء بالعهد إلا عقود الهدنة الحربية مع العدو عند توفر القرائن القاطعة على تحركات جيشه المريبة، والاستعداد لحرب جديدة، أو حال المعاملة بالمثل، وحال نقض العدو المعاهدة من جانب واحد، وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى

57. أبو داود. 2009م. *سنن أبي داود*. ج. 4: 658. باب في الذمي يسلم في بعض السنة. رقم الحديث. 3052. قال المحقق: الحديث إسناده حسن.

سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[58].

أي إنْ قامت القرائن على خيانة العدو عهدهِ، نقُض العهد وأعلم العدو بالنقضِ، حتى يكون المسلمون وغيرهم متساوين في العلم بذلك. وصرّح فقهاء الحنفية بأنّ الهدنة لا تنتقض إلا باتفاق العدو على نقضها، أي لا عبرة بنقض الأفراد[59] والإلزام القرآني باحترام العهود والمواثيق هو من أجل إقامة حالة سلم ثابتةٍ تقوم على أقوى الدعائم، سواء في الداخل أو الخارج. والبراهين على وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق متوافرةٌ متضافرةٌ في القرآن الكريم والسنّة النبوية. فمن آيات القرآن: ﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إذا عاهَدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكم كَفِيلًا إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾[60]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[61]، ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾[62]، أي أن الوفاء بالعهد من أصول الإيمان، وهو شأنُ المؤمنين خلافاً للمنافقين، لقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ﴾[63]. ومن الأحاديث الصحيحة في احترام العهود: «لا إيمان لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهد له»[64]، «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ»[65]، بل إنّ الإسلام ألزم بالوفاء بأحلاف الجاهلية ذاتِ الطّابع الخيّر والإنسانيّ الرفيع، فقال – عليه الصلاة والسلام –: «أوفُوا بِحِلْفِ الجاهِلِيَّةِ فإِنَّهُ لا يزيدُهُ – يعني: الإسلامُ – إلَّا شِدَّةً، ولا تُحْدِثُوا حِلْفًا في الإسلامِ»[66]، أي إن الإسلام يقر التعاهد على نصرة الحق والخير أيّاً كان مصدره،

58. القرآن. الأنفال 8: 58.
59. الشيباني، أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد. 1958م. *شرح السير الكبير*. ج. 4. ص. 6.
60. القرآن. النحل. 91:16.
61. القرآن. الأسراء. 34:17.
62. القرآن. التوبة. 4:17.
63. القرآن. البقرة. 177:2.
64. ابن حنبل، أحمد. 2001. *مسند الأمام أحمد بن حنبل*. ج. 20: 423. رقم الحديث: 13199. قال المحقق: حديث حسن.
65. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. د.ت. *صحيح مسلم*. ج. 3: 1359. باب تحريم الغدر. رقم الحديث: 1735.
66. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي. 1977م. *سنن الترمذي*. أحمد شاكر (المحقق). ج. 3. بيروت: دار إحياء التراث العربي. باب ما جاء في الحلف. رقم الحديث: 1585. وصحّح محقّق الكتاب الحديث.

ويمنع التحالف على الشر والفتنة والقتال القبَليّ، والعدوان الهمجيّ. ولا يسمح الإسلام بالإخلال بالعهود أو الغدر، حتى ولو غدر العدو بالمسلمين؛ وقاعدةُ الفقهاء

في ذلك: «وفاء بعهد من غير غدر خير من غدر بغدر»[67].

2.1.2.2.2 ثانياً: تطبيقات الدبلوماسية الوقائية في الشريعة الإسلامية

1- في القرآن الكريم:

لقد وردت آياتٌ كثيرةٌ في كتاب الله – عز وجل –، تدلّ على شرعيّة المعاهدات منها قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[68]، قال الإمام القرطبي: فإمّا تخافنّ من قوم غِشاً، ونقضاً للعهد، وهذه الآية نزلت في بني قريضة وبني النضير، قال الأزهري: معناه، إذا عاهدت قوماً فعلمت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقض، حتى تُلقي إليهم أنك قد نقضت العهد والوادعة[69]، ففي آيات كتاب الله تعالى قد ذكرت العهد والميثاق، والمعاهدة والنّبذ، وغيرها من كلمات لها دلالات ترتبط بالميثاق والعهد. والآيات الكريمة كما أشار الباحث هي أدلة شرعية فيها أمارة دالّة على وجه المشروعية لعقد هذه المعاهدات.

2- من السنّة النّبوية الشّريفة

إنّ السنّة النّبوية هي المصدر الثّاني بعد القرآن الكريم في كونها مصدراً من مصادر التشريع، ومن الأحداث التي توصف في حياته – عليه الصلاة والسلام –، شُهوده بنيان الكعبة المشرفة؛ وذلك أن قريشاً أرادوا تجديد بناء الكعبة، فبنوها ولكن قريشاً اختلفوا في من يضع الحجر الأسود في مكانه حتى كاد يقتل بعضهم بعضا،

67. البخاري، محمّد بن إسماعيل. د. ت. *صحيح البخاري*. باب إثم من عاهد ثم غدر. رقم الحديث: 3007.

68. القرآن. الانفال. 58:8.

69. القرطبي، أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي شمس الدين. 1964م. *الجامع لأحكام القرآن*. أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (المحقق). ط. 2. ج. 8. ص. 31. القاهرة: دار الكتب المصرية.

ولكن النّبي – صلى الله عليه وسلم – لما دخل المسجد الحرام قالوا رضينا به حكما، وذكروا له نقاط الخلاف، فقال: – عليه الصلاة والسلام – هلموا ثوباً، يعني ائتوا بثوبٍ أو رداءٍ، ثم وضع الحجر الأسود فيه، ثم أمر كلّ قبيلة أن تأخذ بناحية من نواحيه، ثم أمرهم أن يرفعوه جميعاً، ثم أخذ الحجر الأسود بيده الشريفة فوضعه في مكانه، وبهذا التصرّف العظيم استطاع – صلى الله عليه وسلم – أن يحقن الدّماء، وأن يحلّ مشكلةً من أعقد المشاكل التي كادت تفتك ببشر كثير، ومن الأحداث التي شارك فيها – عليه الصلاة والسلام – في تلك الفترة، مشاركته في حلفِ الفضول الذي تعاقدت فيه قريش على مناصرة المظلوم ورد الحقوق إلى أهلها، وقد أثنى عليه النبي – عليه الصلاة والسلام – «لو دُعيت لمثله في الإسلام لأجبت»[70] لأنّه يُقِرّ المبادئ والقيم الخلقية التي تقوم على نصرة المظلوم[71]، وقد ثبت في أقوال الرسول – عليه الصلاة والسلام – وأفعاله ما يدل على مشروعية المعاهدات، فمن أقواله: «ومن نكثَ العهدَ وماتَ ناكثًا للعهدِ جاءَ يومَ القيامةِ لا حُجَّةَ له»[72] وعَقَدَ النبي – صلى الله عليه وسلم – عِدّة معاهداتٍ بعد الهجرة وقد كانت أشهرها معاهدة الحديبية مع كفار مكة. فهذه المعاهدة أصبحت مدار حديث الفقهاء جميعاً عندما يتكلمون عن المعاهدات، وعن شروطها وأركانها وطبيعتها. وقد كانت أفعاله – عليه الصلاة والسلام – هي التطبيق العملي، والبيان لأقواله المتعلقة بالمعاهدات، وكذلك تفسيراً للآيات الكريمة التي ذكرت المعاهدات، بالإضافة إلى ما ورد من بيانٍ في كتاب الله في الآيات نفسها. وهناك من أفعال الصحابة – رضوان الله عليهم – إذا حصل إجماع منهم عليها فتعتبر دليلٌ شرعيٌّ تماماً كالقرآن الكريم والسنّة النّبوية الشريفة. وهكذا يرى الباحث: أن المعاهدات كأحكام شرعية، هي مما أجازه الشارع الحكيم، خدمةً لمصلحةِ المسلمين، وخدمةً للدعوة التي يحملونها مجاهدين وفاتحين الأمصار تلو

---

70. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني. 2003م. *السنن الكبرى*. ج. 6: 596. باب إعطاء الفيء على الديون ومن يقع به. رقم الحديث: 13079. قال ابن الملقن في البدر المنير: حديث صحيح.

71. طلاب وطالبات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. د. ت. *السيرة والشمائل*. المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ص. 30.

72. ابن حنبل، أحمد. 2001. *مسند الأمام أحمد بن حنبل*. ج. 24: 452. رقم الحديث: 15681. قال المحقق: بعضه صحيح لغيره.

الأمصار، وقد رأينا أدلةً تمّ إجازتها من خلال القرآن والسّنة، وأفعال صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإجماعهم على ذلك. وكل ذلك وغيره من التنظيم العظيم للدولة الإسلامية الفتية، إنما هو ردٌّ جليٌ على من اتّهم هذه الحضارة العظيمة الرائدة وادّعى أنّ "القانون الإسلامي المتعلق بالعلاقات الدولية والدبلوماسية قليل وغامض"، فأين الغموض من هذا كلّهِ وأيّ حضارةٍ هذه التي تُتَّهم جزافاً، وهي بحق شمسٌ لا تحتجب أنوارها إلا سحب نار الحقد والفتن من هنا وهناك. إنّ التّطبيقات الدبلوماسية في الشريعة الإسلامية كثيرة جداً ولا يسع المقام لسردها؛ لأنّ الباحث أراد في هذا المطلب أن يبيّن أنواع الدّبلوماسيّة فحسب.

2.1.3 نشأة الدبلوماسية الدولية وتطورها التاريخي في الشريعة الإسلامية

إن دراسة النشأة والمراحل التاريخية للعلاقات الدبلوماسية يتضح لنا أنها قديمة قدم الشعوب ذاتها، لأن تاريخ تطور هذه المؤسسة قد ارتبط بشكل أو بآخر بتطور حاجات الجماعات الإنسانية المختلفة في سعيها لتنظيم العلاقات فيما بينها، فالقبائل البدائية كانت تعيش في أجواءٍ تسودها الصراعات والتناحر، خاصةً تجاه الفئات القريبة أو الدخيلة على مناطقها، وحتى إزاء القبائل التي تجاورها، وبالرغم من هذا الوضع البدائي الذي كان يسود العلاقات البشرية، فقد كانت تبرز الحاجة للاتصال بين تلك الجماعات لتنظيم المصالح المتبادلة فيما بينها. وحتى فيما قبل التاريخ، لابدّ وأنّه كانت ثمّة لحظات رغبت فيها جماعة همجيّة في التفاوض مع جماعة همجيّةٍ أخرى.[73]

أقامت المجتمعات القديمة العلاقات بينها، فكانت تُرسل الوفود لإجراء المفاوضات من أجل تسوية المنازعات بينهم، حيث لم تكن العلاقات بين هذه المجتمعات إلّا علاقةَ حروبٍ وصراعات، فكانت المفاوضات بينهم تقوم من أجل وقف الحرب وإنهاء النّزاع، بهدف دفن الموتى ونقل الجرحى، ولكن أحياناً كانت هذه

73. الرضا، هاني. 2010م. *العلاقات الدبلوماسية والقنصلية تاريخها– قوانينها– وأصولها*. بيروت: دار المنهل اللبناني. ص. 16.

المفاوضات تتعثر إذا ما قتل رُسُل أحد الطرفين عند وصولهم، وهكذا لاح في الأُفق مبدأ الحصانة الدبلوماسية الذي نعرفه اليوم، وقد طبَّق هذا المبدأ السُّكان الأصليُّون لاستراليا، في حين اعتقد الكُتّاب في القرن السادس عشر أنّ الدبلوماسيين الأوائل كانوا عبارة عن ملائكة أو رُسل تنقل الرسائل بين السماء والأرض، إلا أنّ الكُتّاب الجدد رفضوا ذلك[74].

2.1.3.1 الفرع الأول: نشأة الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي – عليه الصلاة والسلام

لكل شريعةٍ أو قانون مصادره الخاصّة، ويُقصد بمصادر الدبلوماسية الإسلامية تلك المنابع التي ساهمت في تكوين الدبلوماسية الإسلامية، وهي بالتأكيد منابعُ تاريخية وبيئية ووراثية اكتسبتها الدبلوماسية الإسلامية من الشخصية العربية السائدة قبل الإسلام، والمنابع السّماوية التي جسدها الله تعالى في القرآن والسّنة، وشخصية النبي – صلى الله عليه وسلم –، وهي مجموعة المميزات والصفات التي تميز بها عن غيره كونه نبياً يتمتع بصفات النُبوة الخاصة به، وبصفته رسولاً اصطفاه الله تعالى ليحمل الرسالة للعالم أجمع، وما يتطلبه ذلك منه من قدرة وصفات مميّزة من أجل إيصال الرسالة للمرسل إليهم، وهم الناس كافة على اختلاف لغاتهم ومعتقداتهم وثقافاتهم ومدى استجاباتهم، وتأثُّر مصالحهم إلى غير ذلك من الاختلافات القائمة بين أبناء البشر. وأن يجمعهم في ظلّ رسالةٍ سماوِيّة واحدةٍ تتضمّن أحكاماً موحدة تنطبق عليهم جميعاً في الزمان والمكان. وهو أمرٌ يتطلب ممن يحمل هذه الرسالة أن يتصف بصفات معينة تؤهله لاستيعابها والقدرة على إيصالها إلى الناس كافة كما أنزلها الله تعالى. ومن الواضح أنّ النّبي – صلى الله عليه وسلم – استمد قدرته الدبلوماسية من عوامل تاريخية اقترنت بطبيعة شبه الجزيرة العربية، التي تميزت بحالةٍ اجتماعيةٍ خاصة قائمة على النّظام القبليّ الذي عّد القبيلة نظاماً سياسياً قانونياً مستقلاً قائماً بذاته، تتمتع فيه القبيلة بسيادة كاملة على أفرادها والأرض التي

74. سرحان، عبد العزيز محمد. 1976م. *قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. القاهرة: مطبعة عين شمس. ص. 11.

يقيمون عليها.

ولشخصيّة النّبي – عليه الصلاة والسّلام – الدور الكبير في نشر الديّن الإسلامي بالوسائل الدبلوماسية، لما امتلكه من صفات متميزة لم يتصف بها غيره. فكانت شخصيته نموذجاً مُشعاً دفعت الكثيرين إلى الإيمان به حتى قبل أن تنزل الرسالة أو يكتمل نزولها، ومن الأمور التي كونت شخصية النبي – عليه الصلاة والسلام – الدبلوماسية، أحكام الشريعة الإسلامية التي وضعت نظاماً دبلوماسياً متقدماً. حرص النبي – عليه الصلاة والسلام – على أن يكون الأُسوة الحسنة في تطبيقها على نفسه أولاً، وأن يكون أميناً في نقلها للنّاس كافةً.[75] تعد العلاقات الدولية والدبلوماسية في الوقت الحاضر من أهمّ ما يتميز به القانون الدولي المعاصر، وقد أقام الإسلام علاقات دبلوماسية دولية متطورة، فقد تمكن النبي – صلى الله عليه وسلم – من إقامة دولة عصرية متطورة، فجمع أوصالاً متفرقة ومتناحرة من القبائل العربية التي لم تكن هي الأخرى قد عهدت نظاماً دولياً، كما هو الشأن بالنسبة للدول القائمة في ذلك الوقت كالدولة الرومانية والدولة الفارسية، وقد تمكن النّبي – عليه الصلاة والسلام – أن يستحدث دولةً بنظامٍ قانونيّ داخليّ ودوليّ يضاهي الدول المعاصرة له.

ولما كان الإسلام قد جاء بأحكام تفصيلية، فإن نشرها يتطلب الفهم والإدراك والتعمق في معرفة أحكامه من قبل المخاطبين به، وهذا الأمر لا يأتلف واستخدام القوة المسلّحة، بل لابد من تهيئة الأجواء المناسبة التي تساعد المخاطب على فهم أحكام الشريعة الإسلامية بالشكل الصحيح، ولهذا فقد وقف الإسلام من مسألة الحرب والعدوان موقفاً معارضاً، ووضع الوسائل الدبلوماسية لإيصال محتواه إلى المخاطبين به بسهولة ويسر. وبناءً على ذلك فقد اتجهت مخاطبات النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الأمم المتطورة التي شهدت أدياناً سماويّة ومؤسساتٍ دينية، ولم يبدأ بالأمم المتخلفة التي لم تَعرِف الأديان، فلم يستخدم ما يطلق عليه في الوقت

75. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني. 1415هـ. *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. علي عبد الباري عطية (المحقق). بيروت: دار الكتب العلمية. ص. 418.

الحاضر "نظرية ملء الفراغ"، فالإسلام خَاتم الأديان السماويّة، وفهمه وإدراكه يتطلبان الوعي والقدرة والعلم والثّقافة، وهذه المتطلبات لا يمكن توفرها إلا في الأمم المتطورة، ولهذا فقد بدأ النّبي – عليه الصلاة والسلام – بمخاطبة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل، الذين بلغوا مرحلةً متقدمةً من الإدراك والوعي لفهم الدّين الجديد ومعرفة أحكامه كما أنزلت، وبناءً على ذلك سوف نتناول نماذج من العلاقات الدولية والدبلوماسية في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم –:

2.1.3.1.1 المفاوضات

تعد المفاوضات من أهم موضوعات الدبلوماسية، وهي من أهم الوسائل الدبلوماسية لتسوية المنازعات الدولية التي عرفها العالم، وباعتبارها أحد الوسائل الدبلوماسية المهمة لفض المنازعات الدولية في الفقه الإسلامي، سوف يتناول الباحث هذا الموضوع بشيءٍ من التفصيل في الفصل القادم الذي يحمل عنوان "الوسائل السلمية لحسم المنازعات والخلافات الدولية في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي".

2.1.3.1.2 المذكرات الدبلوماسية

تُعد المذكرات الدبلوماسية من الوسائل الدبلوماسية المهمة في العلاقات الدولية، وهي وثائق مكتوبة تعد حجّةً على من يحررها.

1- مفهوم المذكرة الدبلوماسية في الإسلام

يقصد بالمذكرات الدبلوماسية الخطابات المكتوبة المتبادلة بين الدول، التي توضح رأي الدولة في قضية معينة، وعُربت كلمة "*Note*" الواردة في التعامل الغربي خطأ إلى كلمة المذكرة، وهو تعريب غير مُوفق، والمذكرة من فعل ذَكَرَ، والذِّكر الصّيت والثّناء، وسيف مذكر أي ذو ماء[76]، وكان المفروض أن تُعرّب إلى كلمةِ كتابٍ

76. مجمع اللغة الغربية بالقاهرة. 1400هـ. *المعجم الوسيط*. ج. 1. الإسكندرية: دار الدعوة. ص. 237.

أو رسالةٍ فهي أقرب إلى الواقع. ولم يستخدم الإسلام مصطلح المذكرات الدبلوماسية، وإنّما استخدم مصطلح "كتاب"[77] أو "رسالة"، وسمّى الشخص الذي يتولى حملها بالرّسول أو السفير في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم –، واستخدم النبي – عليه الصلاة والسلام – مصطلح الكتاب في العديد من الرسائل التي أرسلها إلى الملوك والأمراء وشيوخ القبائل، والكتاب من فعل كتب، والكتاب الفرض والحكم والقدر، والكتاب عند العرب العلم ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[78]، والكُتّاب: الكتبة، والْكِتَاب والمكْتب واحد والجمع الكتاتيب والمكاتب[79]، والسفر الكِتاب الكبير، والرسول إذا كان يحمل رسالة مكتوبة فيطلق على هذه الرسالة اسم الكِتاب لأنّها مكتوبةٌ، أمّا إذا لم يحمل كتاباً فيُطلق على ما يحمله بالرسالة. وقد آثرنا أن نستخدم المذكرة الدبلوماسية رغم أن المصطلح العربي الإسلامي أكثر دقة، بسبب أن المذكرة الدبلوماسية هي المتداولة في الوقت الحاضر حتى بين الدول الإسلامية.

2- أهمية مراسلات النبي – عليه الصلاة والسلام – الدبلوماسية:

اعتمد النبي – صلى الله عليه وسلم –أسلوب المراسلات الدبلوماسية لمخاطبة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل، واستخدم أسلوباً دبلوماسياً رفيعاً في كتابة المذكرات الدبلوماسية، وهو ذات الأسلوب الحديث المستخدم في صياغة المذكرات الدبلوماسية في الوقت الحاضر، ومنذ بداية ظهور الإسلام في المدينة لم يشغل الدولة الفتية مشاكلها ومعاناتها من اليهود والمنافقين والقبائل المحيطة بالمدينة، وتهديد قريش والقبائل المتحالفة معها، عن تنظيم علاقاتها، وقد أرادت الدولة الإسلامية أن تثبت للعالم بأنّها دولةٌ متحضّرةٌ لها قانونها السماويّ وقوتّها، وأنّ أساس الحكم فيها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنها تهدف إلى تخليص الشعوب من

77. أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. د. ت. *الكاشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. ج. 3. بيروت: دار الفكر العربي. ص. 108.

78. القرآن. القلم. 68 :47.

79. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. 1999م. *مختار الصحاح*. يوسف الشيخ محمد (المحقق). ط. 5. ج. 1. بيروت: المكتبة العصرية. ص. 266.

الظلم والاستبداد والتّخلف.

وكان الوطن العربي يضم العديد من الدول والقبائل ذات الاستقلال التام عن بعضها، والتي غالباً ما كانت تخضع لهيمنة الحماية الأجنبية، وتحيط بالوطن العربي كل من دولتي الفرس والروم، وكانتا ذات نفوذ في العالم في ذلك الوقت، وهما دولتان ذواتا تراث حضاري متطور وقوة عسكرية كبيرة، ولهما نفوذ داخل الوطن العربي وتحتلان أجزاء منه، ولما كان نشر الدين الجديد والإعلان عن الدولة الإسلامية يتطلب إشعار الدولة الأخرى بوجودها والتواصل معها، وهذه المهمة لا يمكن تحقيقها إلا بالطرق التي تعارفت عليها الدول المتطورة في ذلك الوقت، فقد لجأ النبي – عليه الصلاة والسلام – إلى مراسلة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل بالمذكرات الدبلوماسية، وبشكلٍ يدّل على تطور وتقدم دولة المسلمين، وقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – على علمٍ وبيّنة بما كانت عليه القوى السياسية المتنفذة في العالم، وما تعانيه من مشاكل وصراعاتٍ وأزماتٍ أخلاقيةٍ ودينية، وما تمارسه من ظلم واضطهاد لرعاياها، ولهذا فقد وجد النبي – عليه الصلاة والسلام – الفرصة مواتية، وأن الوقت قد حان لأن يدعو حكّامها إلى الإيمان بالله، وتطبيق العدل والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وبعدَ صلح الحديبية قرّر النبي – صلى الله عليه وسلم – إرسال الرّسل إلى الملوك والأمراء وشيوخ القبائل[80]، واستقبال الوفود والرّسل في أواخر السنة السادسة للهجرة[81]، وقد كان واثقاً من قوة دعوته وعلوّ رسالته ونصر الله له، فأقدم على مخاطبة هؤلاء بقلبٍ ثابتٍ وعزمٍ صادقٍ، فتمكن من معرفة سياسة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه وميلهم إليه، فلابدّ من جسّ نبضهم ومعرفة موقفهم من الإسلام من أجل أن يضع سياسة واضحةً للدّين الجديد، وأن يبدأ بالمبادرة وأن يعرفوا الإسلام من المسلمين، وتفويت الفرصة على أعداء المسلمين ومنعهم من

---

80. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي الشافعي. 1415هـ. *الإصابة في تمييز الصحابة*. عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض (المحقق). ج. 2. بيروت: دار الكتب العلمية. ص. 321.

81. ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك المعامري. 1955م. *السيرة النبوية*. ط. 2. ج. 2. مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي (المحقق). ص. 607؛ ورضا، محمد. 1966م. *محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم*. ط. 5. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. ص. 277.

الدّس على الإسلام والمسلمين. ولم يتجه النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الأمم والشعوب المتخلفة البدائية لنشر رسالته، لأنّ مقدار ما تفهمه هذه الأمم والشعوب، لا يرقى إلى فهم أحكام الشريعة الإسلامية القائمة على المنطق والحجة والفهم الصحيح، فلم يبعث إلى الشعوب الأفريقية المتخلفة المجاورة رغم شمولها بحتمية الرسالة، بل إنه فضّل أرقى الحضارات المعاصرة له، لأنّها تملك من الوعي والقدرة ما يؤهلها لفهم وإدراك محتوى الرسالة الإسلاميّة، واتجه إلى القمم وخاطبها ولم يبدأ بالقواعد العريضة، لأنّه يدرك أنّ استجابة الملك أو الأمير تتبعها استجابة الدولة برمتها، ومن ثم يحقق المطلوب. وقد اكتسب النبي – عليه الصلاة والسلام – هذه الخبرة أثناء معاناته في مكة عندما اتجه إلى القاعدة فنشر الإسلام فيها، لأنها القاعدة المظلومة والتي هي أساس الدين، فإنّ ما أعاقه من نشر الدين في مكة كان بسبب أصحاب السطوة والنفوذ الذي يتمتع به بعض المتنفذين، الذين وجدوا في الدين الإسلامي ما يهدد مصالحهم، فقاموا بمحاربة الدين واتّباعه[82]. وأدرك النبي – صلى الله عليه وسلم – أهمية المذكرات الدبلوماسية التي أرسلها للملوك والأمراء، وكان واثقاً من نفسه وأصالة رسالته، وعالماً بأن الأمم لا تقاس باتساع مساحات أرضها ولا بكثرة شعوبها أو قوتها المادية والعسكرية، وإنّما بما تملكه من قيم أخلاقية وروحية وأصالة المبادئ الإنسانية، فهذه لوحدها كافيةٌ لأنّ تهز العروش وتقلعها من أساسها، أو تضعها على جادة العدل والصواب، وكانت المذكرات التي بعثها تفيض بالقيم السماوية التي لا تعلوها قيمة، وكان لها الأثر الكبير في إسلام العديد من الملوك والأمراء وشيوخ القبائل، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يدرك تماماً ردود فعل بعض الملوك، إلا أنه آثر أن يخاطبهم لأسباب متعددة منها[83]:

أ. إن الله لا يحاسب الفرد الذي لم يُبلَّغ بالدعوة الإسلامية، ومخاطبة الملوك والأمراء تعني وضعهم أمام حساب الله، خاصةً وأنّ الرسالة الإسلامية للناس كافة والمطلوب هو إيصالها للجميع.

82. برهان الدين الحلبي الشافعي. 1972م. *السيرة الحلبية*. ج. 1. بيروت: دار الفكر؛ وابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك المعامري. 1955م. *السيرة النبوية*. ص. 82.

83. الفتلاوي، سهيل حسين. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية*. ص. 71.

ب. إنّ مخاطبة الملوك تقلّل من حقدهم على الإسلام، فهو وإنْ كان له موقفٌ ثابت؛ فإنّ عدم إشعارهم قد يفسرونه بعدم الاهتمام بهم، لذلك فإنّ بعض الملوك رغم عدم إسلامهم، إلا أنهم أكرموا الرسل، وردّوا رداً جميلاً، وأرسلوا الهدايا للنبي – عليه الصلاة والسلام –.

ج. إن الملوك الذين وقفوا موقفاً معادياً مثل كسرى ملك الفرس، فإن المذكرة التي أُرسلت إليه قد فعلت فعلها، فقد أشعرته بأن هناك قوة من داخل الوطن العربي تهدد نفوذه في المنطقة، خاصةً وأنّ للفرس خبرةً بأن الخطر يحدق بهم من أرض الوطن العربي عندما كان البابليّون يهددون حكمهم.

د. أوضحت المذكرات الدبلوماسية أن الإسلام دين رسالة وسلام، وليس هدفه تهديد الملك وإزالته، وإنّما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالمذكرات أشعرت الملوك بأن الإسلام لا ينازعهم في ملكهم، وإنّما ينازعهم في معتقداتهم، فإذا ما أسلموا وحكموا بحكم الإسلام، فإنّهم سوف يبقون على سلطتهم.

هـ. أوضحت المذكرات للملوك والأمراء بأن الإسلام دين حضارة ومعاصرة، ويستخدم الوسائل الدبلوماسية لمعالجة الأمور بين الدول، وأنّه لم يلجأ للقوة العسكرية.

و. لقد شعر الملوك والأمراء أن الإسلام دخل إلى دولهم عن طريقهم، وهو الباب الصحيح الذي يستطيعون ترتيبه وتنظيمه بأنفسهم، فلو تجاهلهم الإسلام واتصل بالقواعد لكان لهم موقف معادٍ للإسلام.

ز. تمكن النّبي – عليه الصلاة والسلام – بواسطة الرّسل من معرفة أحوال الدّول التي أرسل إليها المذكرات الدبلوماسية، وأصبح لديه العلم والدّراية بما يحيط به.

ح. حققت المذكرات الدبلوماسية انتشار الدّين الإسلاميّ بصورةٍ واسعة، ونقله إلى أرجاء متعددة وبعيدة عن مركز الدولة الإسلامية في المدينة، والانتشار الذي حققته المذكرات الدبلوماسية لم تحققه أية وسيلة أخرى.

ط. كان نقلَ المذكرات الدبلوماسية بواسطة الرّسل قد وفّر لهؤلاء الرسل خبرةً عن الدول التي حملوا إليها الرسائل، ممّا تطلب من النّبي – عليه الصلاة والسلام – أن يُعيّن بعض رسله وُلاةً عليها، أو لإرشاد المسلمين في هذه الدول.

ي. كان من نتيجة نجاح المذكرات الدبلوماسية في مخاطبة الملوك والأمراء أن استمر تبادل المذكرات الدبلوماسية حتى بعد دخولهم الإسلام، فأصبحت المذكرات الدبلوماسية الوسيلة الوحيدة للتوجيه ومعالجة الأمور. من خلال ذلك فقد كان للمذكرات الدبلوماسية أهمية كبيرة في نشر الدين الإسلامي، حيث كانت من الوسائل الناجعة في إدارة الدولة الإسلامية، فقد استخدمت في مخاطبة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل قبل إسلامهم وبعد إسلامهم؛ ذلك لأن هؤلاء رغم دخولهم الإسلام إلا أنهم احتفظوا بشخصيتهم القانونية المستقلة، فكانوا يخاطبون النبي – صلى الله عليه وسلم – قبل إسلامهم وبعد إسلامهم، وقد فعلت المذكرات فعلها في توجيه الملوك والأمراء وشيوخ القبائل من الناحية الدينية والمالية والإدارية والعسكرية.

3- أسلوب المذكرات الدبلوماسية:

تعتمد الدول في الوقت الحاضر على استخدام المذكرات الدبلوماسية لمخاطبة بعضها الآخر، فهي الوسيلة الدبلوماسية الأكثر استخداماً والأيسر عملاً؛ لأنها وسيلة مباشرة تحدد الآراء والمواقف بصورة رسمية بعد دراسة جميع محتوياتها من قبل أجهزة الدولة المتخصصة. والمذكرات الدبلوماسية وثائق رسمية مكتوبة يتم تبادلها بين الدول، تخضع لِشكلية خاصّة، حددّها العُرف الدبلوماسي منذ القدم، وقد لجأت الدول إلى هذه الوسيلة منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ولا تزال تُعد الوسيلة الدبلوماسية المتقدمة على الوسائل الدبلوماسية الأخرى لمعالجة وتسوية المنازعات بين الدول، وتوطيد العلاقات الدولية. وتُعد المذكرات الدبلوماسية

بأسلوبٍ خاص لا يختلف من دولة لأخرى[84]، فعلى الرّغم من أن الدول تختلف في النّظم السياسية والقانونية والاقتصادية والأيديولوجية؛ إلا أن أسلوب المذكرات الدبلوماسية واحد بين جميع الدول، وقد اعتمد النبي – صلى الله عليه وسلم – أسلوباً دبلوماسياً كان معروفاً بين الدول في ذلك الوقت: وهو الذي لا يزال معتمداً في الوقت الحاضر، من ناحية شكل المذكرات الدبلوماسية وأسلوب صياغتها.

2.1.3.1.3 الآثار والقيم الدبلوماسية في الإسلام

تفصيل آداب السّفراء في الفقه الإسلامي، وفق دلالات الكتاب والسنة وعمل الأمة، تتجلّى فيما يلي:

أ. الأمانة والدّقة فيما يُوكَل إليه من مهام.

ب. التزام مبادئ القدوة في السلوك الشخصي.

ج. الاعتناء بالمظهر وإظهار الهيبة في غير مخيلة ولا إسراف.

د. احترام التقاليد الدبلوماسية ما لم تتعارض مع قيم الإسلام.

هـ. معرفة ثقافة البلد التي يرحل إليها.

و. احترام القوانين المحليّة والالتزام بعادات الناس وتقاليدهم.

ز. عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول.

ح. بناء جسور من المحبة والاحترام مع الدّول المضيفة.

ط. الالتزام بالتواصل مع الدولة والعمل في سياق مؤسساتها.

ي. وجوب التواصل مع الوطن وعدم جواز الانقطاع عنه لفترات تطول.

ك. الشفافية والمكاشفة مع مرجعيته الوطنية.

---

84. أحمد، حلمي أبراهيم. 1976م. *الدبلوماسية – البرتوكول – الإتيكيت – المجاملة*. القاهرة: عالم الكتب. ص. 169.

ل. تعزيز ثقافة الخدمة في أداء السفارات.

م. ترقية أحوال الجالية والاعتناء بها.

ن. تمثيل الدولة وليس تمثيل الأحزاب.

س. إن مبدأ المعاملة بالمثل تُقرُّه الشريعة الإسلامية وتحتكم إليه اليوم الأعراف الدبلوماسية، والأمة مأمورة أن تلتزمه في علاقاتها الدبلوماسية، ولا يحق التّخلي عنه إلا في إطار مصلحة حقيقية للأمة.

ع. السفير مأمور بالوفاء لوطنه والإخلاص لأرض إقامته، ولا يجوز أن تتناقض هذه المصالح في العلاقات الوديّة، بل هي تتكامل وتتواصل.

ف. إن اختلاف العقائد لا ينبغي أن يحول دون قيام علاقات صحيحة، فالتعامل الدبلوماسي هو شأن أرضي يقوم على أساس الظّاهر، أمّا الغيب فهو شأن سماوي ولا يعلمه إلا الله، وأمر حساب الناس موكول لله تعالى.

ص. إن التعاون والتكامل مع دول العالم الإسلامي هو مصلحة حقيقية لكل بلد إسلاميّ، وعلى السلك الدبلوماسي أن يعمل على بناء شبكة علاقاتٍ متينة مع العالم الإسلامي تحقيقاً لمصالح وطنه، واعتماداً على الحقائق الدينية والتاريخية والجغرافية التي تُعزّز هذا التواصل[85].

2.1.3.2 الفرع الثاني: العلاقات الدبلوماسية الدولية في عهد الخلفاء الراشدين

بدأ عهد الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – "سنة 11 – 40هـ"، وكانت فترةً مليئةً بالأحداث التي تدل على عظمة ما قاموا به، ولما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد وضع أصول الدبلوماسية الإسلامية القائمة على الأخلاق والفضيلة الإنسانية، فقد أصبحت هذه القواعد منارةً

85. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. 1955م. *التاج في أخالق الملوك*. بيروت: دار الفكر. ص. 45.

استنارت بها الدولة الإسلامية على مرّ الزمن، خاصةً بعد أن توسعت الدولة الإسلامية، وأصبحت مجاورةً للعديد من الأمم والشعوب، فقد اتّبع الخلفاء الراشدون سيرة النبي – عليه الصلاة والسّلام – في الاعتماد على الدبلوماسية لنشر الدعوة الإسلامية، ولم تَقِل براعتهم في الدبلوماسية عن براعتهم الحربية، وذلك أنهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى للإسلام بسكان البلاد المجاورة الذين كانوا يعيشون حالة من الذل والهوان من حكامهم، وقد كانوا على استعدادٍ لاستقبال المسلمين بترحاب وحبور. وعليه سنتناول الدبلوماسية في عدد من مراحل الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين، محاولين دراسة الجانب الدبلوماسي من المعاهدات التي تمت بينهم وبين الدّول الأخرى، وأخذ نماذج مراسلاتهم واستقبالاتهم للرّسل وما إلى ذلك. ثم نبيّن في الختام الآثار العامّة التي ترتبت على السفارات والمعاهدات في عهد الخلفاء الراشدين، وذلك وفق الآتي:

2.1.3.2.1 أولاً: الدبلوماسية الإسلامية في عهد الخليفة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه: سار الخليفة أبوبكر الصديق – رضي الله عنه – بهدوئه وحكمته واتزانه، وسداد رأيه على طريق رسول – صلى الله عليه وسلم–، وأول ما بدأ به خلافته تلك الخطبة التي وضع فيها للناس منهجاً دبلوماسياً يتّسم بالحكمة والذكاء، وهو أن استقامة وليّ الأمر تعني استقامة الرّعية، وإنْ حاد وليُّ الأمر عن الطريق وجب على الرّعية الصالحة تقويم اعوجاجه وإصلاحه، حيث يقول: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم"[86]. أليست هذه دبلوماسيةً بارعة؟ فأيّ زعيمٍ أو قائدٍ يطلب من شعبه ألا يطيعوه، لولا أنه يمتلك الثّقة بالنّفس بأنّه قادر على إدارة رعيته بأحسن الطرق الدبلوماسية، وأفضل وسائل السياسة المرعية [87] . وقد أولى الصِّدِيق العلاقات الدبلوماسية الخارجية أهمية بالغة، فأرسل الرّسل لعقد معاهدات الهدنة مع

86. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني. 1992م. *السنن الكبرى*. ج. 6. بيروت: دار المعرفة. ص. 574؛ وعبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. المدينة المنورة: دار اليقين للنشر. ص. 196.

87. السامرائي، يونس عبد الحميد. 1976م. *السفارات في التاريخ الإسلامي حتى قيام الدولة العباسية*. (رسالة ماجيستير). جامعة القاهرة. ص. 267.

الدول المجاورة للدولة الإسلامية، فأرسل رُسُله للمُقوْقس وقيصر ملك الروم وكسرى ملك فارس. ومعاهداتُ الهدنة هذه لم تكن لإنهاء حالةِ حرب، وإنّما كانت لتفادي حرب مستقبليّة، وهو ما يطلق عليه في الوقت الحاضر المعاهدات الدولية لمنع التعدي[88].

كما لم يتعرض الصّديق – رضي الله عنه – إلى الوفود التي جاءت إلى المدينة المنورة من المرتدين عن الإسلام، رغم أنّهم جاؤوا للمدينة ليطّلِعوا على الوضع العسكريّ بغرض احتلالها، وكانت معاملته تقوم على قيم وأخلاقِ الدبلوماسية الإسلاميّةِ[89]، وكما ذكرنا أنّه بالرغم من انشغاله بالأمور الداخليّة للدولة الإسلامية من محاربة المرتدين؛ إلا أنّنا نجد أنّه لم يهمل الجانب الدبلوماسي الخارجي، فقد مارس الخليفة أبوبكر الصديق – رضي الله عنه – الدبلوماسيةَ بكلّ أشكالها من إرسال الرّسل وإبرام المعاهدات، وذلك كما يلي:

1- سفارة أبي بكر الصّديق – رضي الله عنه – إلى قيصر الرّوم:

ذكرت بعض المصادر أن الصّديق – رضي الله عنه – بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم –وتولّيه الخلافة، أرسل ثلاثة نفرٍ رسلاً إلى قيصر وهم: هشام بن العاص، ونعيم بن عبد الله، ورجل آخر[90]، وكان الخليفة يهدف من وراء هذه السفارة السّير على نهج رسول الله– صلى الله عليه وسلم –، في الدعوة الخارجية إلى الإسلام بالطرق السلمية، وتوطيد أركان الدولة الإسلامية وتأمين علاقتها مع غيرها، لكنّه يبدو أنّ الرّوم لم يُقدِّروا هذه المقاصد السلمية، فقاموا بمدّ يد المساعدة إلى المرتدين الذين وقفوا في وجه خليفة المسلمين، معلنين العصيان عليه، لذا كان ما كان من صراعٍ ومعارك بين المسلمين والروم، وهذه السّفارة أخذها الباحث كمثالٍ

---

88. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس بن عبد الحليم بن أبي القاسم الحراني الحنبلي الدمشقي. 1999م. *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*. ط. 2. علي بن حسن وآخرون (المحققون). السعودية: دار العاصمة. ص. 269؛ ونعمة، كاظم هاشم. 1992م. *الوجيز في العلاقات الدولية*. بغداد: جامعة بغداد. ص. 25.

89. السامرائي، يونس عبد الحميد. 1976م. *السفارات في التاريخ الإسلامي حتى قيام الدولة العباسية*. ص. 267.

90. ابن كثير (ب)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي. 2003م. *البداية والنهاية*. ج. 9. عبد الله بن عبد المحسن التركي (المحقق). القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ص. 612؛ والقلقشندي، أبو العباس أحمد. 1929م. *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*. بيروت: مطبعة دار الكتب العلمية. ص. 347.

في هذا الدِّراسة، ولكن هناك عدّة سفارات قام بها الصّديق بطريقة مباشرة كرسائله إلى المرتدين، وسفاراتٍ بطريقةٍ غير مباشرة قام بها قوّاده بتوجيهاته مثل: سفارة خالد بن الوليد لدعوة أهل العراق، وسفارة خالد بن الوليد إلى هرمز وأهل فارس وغيرها[91]. أمّا المعاهدات فبالرّغم من أنّ مدة خلافته قصيرة، إلا أنّه أبرم المعاهدات بطريقة مباشرةٍ، كتجديد العهد لأهل نجران، أو عبر قوّاده كمعاهدة خالد بن الوليد لأهل الحيرة[92].

2- معاهدة الخليفة أبي بكر الصديق لأهل نجران كان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد كتب لنصارى نجران عهداً[93]، فلمّا لحق الرسول – عليه الصلاة والسلام – بالرّفيق الأعلى؛ خشي أهلُ نجران أن يتغيّر الموقف عمّا كان عليه في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – فأراد الخليفة أبوبكر أن يؤكد لهم الوفاء بكلّ ما كتبه النبي – صلى الله عليه وسلم – لهم، وعاهدهم عليه فجدد لهم المعاهدة[94]. ونصُّ المعاهدة: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب به عبد الله أبوبكر خليفة محمد النبي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأهل نجران، أجارهم بجوار الله وذمّة محمد النبي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أنفسهم، وأرضهم، وملّتهم، وأموالهم وحاشيتهم، وعبادتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وأساقفهم، ورهبانهم، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير لا يعشرون، ولا يغير أسقف من سقيفته، ولا راهب من رهبانيته، وفاء لهم لكل ما كتب لهم محمد النبي – صلى الله عليه وسلم – على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمّة محمد النبي – عليه الصّلاة والسّلام – أبداً، وعليهم النُّصح والصّلاح فيما عليهم من الحق. شهد المسور ابن عمرو، وعمرو مولى أبي بكر، وراشد بن

---

91. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني الجزري. 1997م. *الكامل في التاريخ*. عمر عبد السلام تدمري (المحقق). بيروت: دار الكتاب العربي. ص. 234؛ ومحمد، رضا. 1950م. *أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين*. ط. 2. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. ص. 150.

92. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي. 1988م. *البداية والنهاية*. علي شيري (المحقق). بيروت: دار إحياء التراث العربي. ص. .382؛ ومحمد، حميد الله. 1969م. *مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة*. بيروت: دار الإرشاد. ص. 232، 234-235.

93. محمد، الغزالي السقا. 1427هـ. *فقه السيرة*. دمشق: دار القلم. ص. 427.

94. الشيباني، أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد. 2012م. *الأصل*. محمَّد بوينوكالن (المحقق). بيروت: دار ابن حزم. ص. 556.

حذيفة والمغيرة"[95]. هذه المعاهدة تدلّ على وفاء الدّولة الإسلامية بالعهود والمواثيق الدولية التي تبرمها مع الآخرين في كل وقت وحين، ما دام الطرف الآخر ظل على وفائه ولم ينقضها.

ومما سبق يتّضح جلياً أن الخليفة الأول – رضي الله عنه – رغم قصر عهده تعامل بالدبلوماسية في وقتي السلم والحرب؛ فأرسل الرّسل وأبرم المعاهدات الدولية، ومنح حريّة العقيدة لأهل نجران، وأعطى الأمان للرّسل الذين جاؤوا إليه، وذلك يدلّ على أنّ الصّديق – رضي الله عنه – عرف الدبلوماسية "بالمفهوم المعاصر" بكل معانيها، وعمل بها منذ أربعة عشر قرناً.

95. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر. 1387هـ. *تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري*. ط. 2. بيروت: دار التراث. ص. 322؛ وأبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري. 1980م. *الخراج*. مصر: دار الإصلاح. ص. 41.

2.1.3.2.2 ثانياً: الدبلوماسية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه يُعد الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من الشّخصيات المعروفة عند العرب قبل وبعد الإسلام، فقد كان ممثلاً لحكومة الملأ في مكة المكرمة، كما كان سفيراً لبني عديّ قبل الإسلام، كما كان يتولّى السّفارة بين قريشٍ والجماعات الأخرى، وكان يتولّى المفاخرة والمناجزة عنها، وكان يتميّز بالفصاحة والدّهاء وقوّة المعارضة، وقد حدّد الخليفة عمر – رضي الله عنه – شروط اختيار الرّسل فقال: "يُؤذن لكم فَيقدم أحسنكم اسْماً، فَإِذا دَخَلْتُم قدمناً أحسنكم وَجهاً، فَإِذا نطقتم ميَّزتكُم أَلْسِنَتكُم، وَكَانَت أَعينُ الْمُلُوك تسبق إِلَى ذَوي الرّواء من الرُّسُل، وَإِنَّمَا توجب ذَلِك فِي رسلها لِئَلَّا ينقص اخْتِيَارهَا حظاً من حظوظ الْكَمَال، ولأنّها تنفذ واحدا إِلَى أمة وفذاً إِلَى جمَاعَة، وشخصاً إِلَى شخوص كَثِيرَة فاجْتَهَدوا فِي أَن يكون ذَلِك الْوَاحِد وسيماً جسيماً، يملأُ الْعُيُون المتشوقة إِلَيْهِ فَلَا تَقْتَحِمُهُ، ويشرف على تِلْكَ الْخلق المتصدية لَهُ فَلَا تستصغره[96]. هذه الشّروط لاختيار الرّسل تكشف عن أنَّ مفهوم الدبلوماسية كان متأصّلاً عند الخليفة الثاني عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، ومن القواعدِ الدبلوماسية المعروفة في الوقت الحاضر اللّين والشدة، فقد رُويَ عنه – رضي الله عنه – أنّه قال: "لا ينبغي أن يلي هذه الأمّة إلا رجلٌ به أربعُ خلالٍ: اللّين من غيرِ ضعف، والشّدة من غير عنف، والإمساك من غير بُخل، والسّماحة في غير سرف"، وقد ازداد نشاط العلاقات الدّبلوماسية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وخاصّة مع الرّوم؛ وذلك يرجع لاتساع الدّولة الإسلامية في الشّام، واقتراب حدودها من آسيا الصّغرى، موطن الروم ومهد أباطرتهم[97]. وتذكر المصادر أنّه كما تبادل الخليفة أبوبكر – رضي الله عنه – السفارات مع قيصر الروم، تبادل معه أيضاً الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، مما يؤكد رغبة المسلمين في نشر الدعوة الإسلامية سِلماً، وإقامة علاقاتٍ سلميةٍ بين الدّولة الإسلامية والدولة الرّومانية. كما كانت هناك سفارات متبادلة مع رؤساء فارس، وذلك كان بين سعد بن أبي وقّاص ورُستم قائد الفرس، وكذلك سفارات متبادلة بين عمرو بن العاص والمقوقس قبل فتح مصر. ومن أمثلة هذه السّفارات، السّفارة التي بعث بها ملك

الفرس إلى الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه–[98]:

1– سفارة الهرمزان الفارسي إلى الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه:

"قَدِم الهرمزان على رأسِ وفدٍ من بلاد فارس إلى المدينة، وذُكر أنّهم لما قَدِموا المدينة، ألبسوا الهرمزان كسوته من الدِّيباج الذي فيه من الذهب، وتاجٌ كان مكللاً بالياقوت، ليراه الخليفة عمر والمسلمون، ثمّ توجهوا إلى الخليفة عمر في المسجد، فوجدوه نائماً، والدرة في يده، فقال الهرمزان أين عمر؟ فقالوا: ها هو، قال: فأين حَرسُه وحاجبه؟ قالوا: ليس له حاجبٌ ولا حرس، قال: فينبغي أن يكون نبياً. قالوا: بل يعمل بعمل الأنبياء. فاستيقظ عمر، وبعد محاورات بينه وبين أمير المؤمنين أسلم الهرمزان وصار من التَّابعين[99]. ومع اتساع الدّولة الإسلاميّة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قام بإبرام كثير من المعاهدات الدولية مع الدول الأخرى بصورة مباشرة، كاتفاقه مع أهل إيليا ببيت المقدس، أو عن طريق أحد قواده كالمعاهدة التي تمت مع أهل مصر، ومن أبرز هذه المعاهدات ما يلي:

2– معاهدة الخليفة عمر – رضي الله عنه – مع أهل إيليا ببيت المقدس:

اشترط أهل إيليا قدوم الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس لإجراء الصلح. وللحقيقة والتاريخ كانت هذه هي المرة الوحيدة في تاريخ القدس التي لم تَرْق فيها قطرة دمٍ واحدة[100]، فقد حضر الخليفة عمر، وأجرى معهم مفاوضات دبلوماسية عميقة انتهت بالمعاهدة الآتية:

---

96. ابن الفرّاء، أبو علي الحسين بن محمد. 1974م. *كتاب رسائل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة*. صلاح الدين المنجد (المحقق). بيروت: طبعة دار الكتاب الجديد. ص. 247.

97. الكاندهلوي، محمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل. 1999م. *حياة الصحابة*. بشار عوّاد معروف (المحقق). بيروت: مؤسسة الرسالة. ص. 263؛ وشلبي، إبراهيم أحمد. 1973م. *موسوعة التاريخ الإسلامي الأول*. ص. 213.

98. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين. 2004م. *تاريخ الخلفاء*. ج. 1. حمدي الدمرداش (المحقق). مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز. ص. 89؛ وحسن، حسن إبراهيم. 1963م. *النظم الإسلامية*. بيروت: دار الكتاب اللبناني. ص. 176.

99. ابن المِبْرَد، يوسف بن حسن بن أحمد الصالحي جمال الدين الحنبلي. 2000م. *محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب*. عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن (المحقق). المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية بالمدينة – أضواء السلف. ص. 447.

100. ابن كثير. 1414هـ. *البداية والنهاية*. ج. 7. ص. 52-53.

نصُّ المعاهدة: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيليا، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وسائر ملّتها، وأنّه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا أحد من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منه الروم واللصوص. فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصُلبهم، فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض...إلخ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين"، شهد على ذلك: خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحضر سنة خمسة عشر للهجرة[101]. ومن الملاحظ في هذه المعاهدة، نظرة الخليفة عمر – رضي الله عنه –الثاقبة وكأنه كان يقرأ المستقبلَ وحوادثه، عندما نزل على رغبة أهل القدس في أن لا يسكن معهم فيها أحد من اليهود، فكان بفكره الثّاقب يحس بما في القدس اليوم من تنازعٍ، في الوقت الذي أمَّن فيه النّصارى على أرواحهم وكنائسهم وأموالهم، وساوَى بينهم وبين المسلمين.

ويرى الباحث أنّه لا بد من وجود وسيلةٍ لإعلام النّصارى في كل عصرٍ إلى قراءة هذه الوثيقة العظيمة، التي تؤكد نظام الإسلام المتسامح مع غيره، بحيث لو قرأها منصف لأقرّ بأن دعوة الإسلام وحي من السماء. وبمثل هذه المعاهدات فإنّنا نظن أنّه لا يوجد في طول التاريخ وعرضه مثل هذا الوفاء المتوالي المرة بعد المرة من رجال دولة في معاهداتهم مع غيرهم، كما فعل الخلفاء الراشدون – رضي الله عنهم – من بعده –

101. المرصفي، سعد. 2009م. كتاب: *الجامع الصحيح للسيرة النبوية*. الكويت: مكتبة ابن كثير. ص. 1754؛ ومحمد، حميد الله. 1969م. *مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة*. ص. 112.

صلى الله عليه وسلم – مع النّجرانيّين.

2.1.3.2.3 ثالثاً: الأثر العام للسفارات والمعاهدات التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين كان لممارسة الخلفاء الراشدين للدبلوماسية في تلك السفارات السلمية والمعاهدات الدولية التي أبرموها مع الدول المجاورة، أثرٌ كبير في نشر الإسلام والتعريف به، ويمكن أن نُجمل تلك الآثار في الآتي:

1. نشر راية الإسلام في البلدان المختلفة.
2. إقبال العجم على الإسلام.
3. إن العنصر الأخلاقي في الدبلوماسية الراشدة من أمانة واستقامة ووفاء بالعهود والمواثيق وما إلى ذلك جعل عدداً كبيراً من أهالي البلدان التي فتحها المسلمون ينقلبون على حكّامهم المستبدين، ويقف الكثير منهم إلى جانب المسلمين؛ كانقلاب أهل فارس على ملكهم يزدجرد.[102]
4. لقد فتحت المعاهدات المجال أمام غير المسلمين للاتصال بالمسلمين والاختلاط بهم، وقد أدى ذلك إلى تعريفهم بمحاسن الإسلام وشرائعه فكان ذلك مدعاة لدخولهم الإسلام.
5. تأمين شبه الجزيرة العربية من دسائس الفرس وعدوانهم.
6. انتشار اللغة العربية في البلاد التي دخلت مع المسلمين في معاهدات سلمية، وحلّت هذه اللغة محل اللغة الفارسية في العراق، وحلّت محل اليونانية في بلاد الشام وبلاد مصر.
7. ساعدت هذه المعاهدات على استقرار العلاقات في البلاد المفتوحة، وتصاهر المسلمون مع أهالي تلك البلاد حتى غلب المسلمون بدينهم وثقافتهم على شعوب كثيرة، وبامتزاج الثقافة العربية والإسلامية بثقافة هذه الشعوب؛ وجد ما نسميه بالحضارة الإسلامية التي أثرت فيما بعد في الحضارة الغربية.

102. الخطيب، عمر عودة. 2004م. *لمحات في الثقافة الإسلامية*. بيروت: مؤسسة الرسالة. ص. 91.

2.1.3.3 الفرع الثالث: التطور التاريخي للدبلوماسية الدولية في الشريعة الإسلامية

المقدمة: تتميّز العلاقات الدولية التي أقامها المسلمون منذ نشأت الدولة الإسلامية بمبدأ الشمولية الكونية، حيث اعتمدوا على مبادئ السّلام والوئام والتعاهد، فمنذُ قيام الدولة الإسلامية أقام المسلمون علاقات ودية مع جيرانهم، وكانت هناك بعثات دبلوماسية بينهم وبين غيرهم من الأقوام والشعوب، وذلك انطلاقاً من فكرة الشمولية التي أتت بها الشريعة الإسلامية، حيث ارتكزت على قاعدة السلام كحالة أصيلة، وعلى قاعدة الحرب كحالة استثنائية، أي الحرب الدفاعية ضد العدوان، والحرب الهجومية لحسر نفوذ القوى المعتدية، وهذا ما يعرف بسياسة الفتح، وقد تميزت الشريعة الإسلامية على حد تعبير الدكتور حسن الحلبي بمبدأ أساسي هو "اجتماع القانون الدولي والقانون الداخلي فيها كفرعيين لنظام قانوني واحد داخليا دون أن يكون لأحدهما السيادة على الآخر، ذلك لأنّها ليست قانوناً داخلياً أدمجت فيه القواعد الدولية، بل شريعة عالمية تنظم العلاقات الداخلية والدولية على السواء"[103].

كما أن الإسلام قد ذكر العلاقات الدولية على أساس السّلم والتعاهد من خلال العلاقات الدبلوماسية التي أقامتها الدولة الإسلامية في عهودها الماضية؛ وذلك لأهدافٍ وأغراضٍ واضحةٍ ليست في المجال الديني فقط، بل كذلك في المجال الاقتصادي والتجاري والثقافي والحضاري، وقد تطورت الدبلوماسية الإسلامية بشكل كبير بعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وخروجه إلى أصقاع العالم، فقامت البعثات الدبلوماسية، وبعثات الصّلح مع الرّوم والفرس، واستمرت البعثات الدبلوماسية حيث شملت عدّة دول خصوصاً بعد قيام الدولة الأُموية، حيث ازداد تبادل الرّسل السفراء بين الروم ودمشق، وأُبرِمت المعاهدات مع الصين والهند، وفي العهد العباسي تطوّرت وتعززت البعثات الدبلوماسية وتنوعت وتعددت أغراضها ووظائفها؛ حيث أصبح التبادل الدبلوماسي وسيلةً لتوثيق الصلات التجارية والثقافية، وتبادل الأسرى وفض النزاعات وعقد المعاهدات.

103. الحلبي، حسن. 1984م. "الاتجاهات العامة في فلسفة القانون". *محاضرات القانون الخاص*. ج. 2. طرابلس: الجامعة الليبية. ص. 438.

العصر العثماني شهد أيضاً تطوراً إدارياً للدبلوماسية، وشهد تبادلاً دبلوماسياً بين الدولة العثمانية والدول الأوربية، كما ظهر في عهد الدولة العثمانية العمل بنظام التمثيل الدبلوماسي الدائم؛ وسيتمّ بيان هذا التّطوّر التّاريخي للدّبلوماسيّة كما يلي:

2.1.3.3.1 أولاً: الدبلوماسية الإسلامية في عهد الدولة الأموية

تمهيد: يُعدّ العصر الأموي من أهم العصور الإسلامية التي استخدمت الدبلوماسية في إنشاء الدولة إدارتها، والتعامل بينها وبين الدول الأخرى، فالأمويّون كانوا بارعين بالدبلوماسية بدرجة كبيرة، فإذا أرادوا شيئاً لجأوا أولاً إلى الدبلوماسية للحصول عليه، ولم يستخدموا الحرب إلا عند الضرورة. وبظهور الدولة الأمويّة ظهرت الإمبراطورية الرّومانية التي قوي ساعدها واشتدّ عُودها، وأصبحت نداً قوياً للدولة الأموية، وقد تعامل الأمويّون مع الرّوم بالحرب أحياناً، وبالدبلوماسية أحياناً أخرى، وقد نقلت الدولة الأموية الخلافة من العراق إلى الشام، وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية التي امتدت من أوربا إلى الصين، وقد استطاع الأُمويون السيطرة على أرجاء دولتهم المترامية الأطراف بسبب حكمتهم الدبلوماسية، وقدرتهم على الإدارة، فهم بارعون في القتال كما أنّهم كانوا بارعين في الدبلوماسية، فحيث وجدوا أن الدبلوماسية غير قادرة على تحقيق أهدافهم؛ تراجعوا ولجأوا إلى القوة لأخذ ما لم يحصلوا عليه. وقد تمكنوا من إقامة الدولة الإسلامية بالأندلس، مما زاد من علاقاتهم الدبلوماسية بسبب مجاورتهم العديد من الدول الأوربية، واستطاعوا التفاعل مع هذه الدّول بشكلٍ كبير ويتجلّى ذلك فيما يلي:

1- الدبلوماسية في عهد الدولة الأموية في دمشق

انتقلت رئاسة الدولة العربية الإسلامية إلى أسرة عربية من قريش هي الأسرة الأموية، التي تنتسب إلى أمية بن عبد شمس، ويُعد الخليفة معاوية بن أبي سفيان المؤسس للخلافة الأموية التي نشأت عام 669م، وقد

حاول معاوية استخدام الأساليب الدبلوماسية في كسب وُدّ الناس، فقيل عنه إنه يعطي المقارب، ويداري المباعد، ويلطف به حتى وثق به أكثر الناس. وقد وُصف معاوية بأنّه رجلٌ دبلوماسيّ متمرس، حليم يحتفظ برباطة جأشٍ مطلقةٍ، ويتخذ القرارات الحاسمة بعد تفكير طويل حكيم، يرفض استخدام القوّة لتسوية المنازعات، ويعامل خُصومه المغلوبين بسخاءٍ وشهامة لا غطرسة فيهما، مما يحفظ لهم كرامتهم واحترامهم وكسبه ودهم[104]. يقول د. محمد عبد الحي شعبان: "ومن التّعمق في دراسة حياته وأسلوبه، وجدنا أنّه يبحث عن عوامل اللقاء بين الناس في الإطار العام، ويترك ما يمكن أن يميز الناس عن بعضهم ويثير تناقضاتهم، فهو الرجل المرن القادر على التراجع من غير تنازل عن مطالبه، فهو يقدم اللين على الشدة، ويدفع الضرر الأشد بالضرر الأخف، ويتمتع بقدرة كبيرة على كظم الغيظ"[105].

ومن أشهر القواعد الدبلوماسية التي وضعها معاوية والتي لا يزال معمول بها في التعامل الدبلوماسي، وتعد مضرباً للأمثال الدبلوماسية، ما يطلق عليه بـ"شعرة معاوية"، حيث قال: "إنّي لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، "ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدّوها أرخيتها وإذاَ أرخوها مددتها"، ومن فلسفته الدبلوماسية قوله: "إنّي لا أحمل سيفي على من لا سيف له، وإن لم تكن إلا كلمة يتشفى بها متشفٍ جعلته تحت قدمي ودبر أذني، وقال: وإنّي لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكثر من علمي، وعورة لا أداريها بستري، وإساءة أوسع من إحساني"[106]، وقد اهتم معاوية بالدبلوماسية فأنشأ ديوان الخاتم، وهو عملية نَسخِ كُتبِهِ ومُراسلاتِهِ وأوامره وبلاغاته، ويُودَع هذا الديوان في مكانٍ أمينٍ بعد حَزمه بِخيط، وختمهِ بالشّمع الأحمر بخاتم صاحب الديوان أو رئيس الديوان،

104. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني. 1995م. *مجموع الفتاوى*. عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (المحقق). المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ص. 478.

105. شعبان، محمد عبد الحي محمد. 1983م. *صدر الإسلام والدولة الأموية 600م إلى 750م*. بيروت: المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع. ص. 90.

106. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني الجزري. 1997م. *الكامل في التاريخ*. ج. 3. ص. 126.

ويمكن أن يُقارن اليوم بما يسمَّى بالأرشيف والسّجلات[107]. توفى معاوية، وجاء بعده ابنه يزيد بن معاوية الذي واجه حروباً وثورات داخلية عديدة، ثمّ تولّى معاوية الثاني سنة 64هـ، الذي توفّى بعد فترة قصيرة من حكمهِ، ثمّ مروان بن الحكم وقد قيل عنه إنّه كان يتمتّع بحكمةٍ وسدادِ رأيٍ وشجاعة، وكان يجيد قراءة القرآن، ثم عبد الملك بن مروان سنة 65هـ، ويرى المؤرخون أنّ عبد الملك وضع نظاماً فريداً لتنظيم البريد، فقد اعتنى بديوان الرّسائل[108]. ثم تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك سنة 86هـ، الذي اهتم بالعمران، فأنشأ الطّرق ومَهّدها، خاصة الطرق المؤدية للحجاز، إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز الذي يُعدُّ أفضل الخلفاء الأمويّين، وأوّل خليفةٍ أمويٍّ أوقف الحروب والفتوح من أجل الإصلاحات الداخلية، وقد قيل إنّه أوقفها بغرض نشر الدعوة الإسلامية بالطرق الدبلوماسية، وأنّه استبدل دعوة غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة. وكان للدبلوماسية التي استخدمها عمر أثر في إسلام العديد من المسيحيين والمجوس وغيرهم، فكان دخولهم للإسلام برغبة دون رهبة[109].

2- الدبلوماسية في عهد الدولة الأموية في الأندلس

في خلافة الوليد بن عبد الملك توسعت الدولة الأموية في الغرب، حيث عبر طارق بن زياد البحر الأبيض المتوسط، ونزل بجنوده قرب جبل أطلق عليه "جبل طارق" في عام 92هـ، الموافق 711م، ثم توالت الفتوحات الإسلامية واستطاع عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش، بعد هروبه من المشرق إلى المغرب الإسلامي عقب انتصار العباسيين أن يطأ أرض الأندلس، وجعل قرطبة قاعدة لدولته[110]، وقد استطاع عبد الرحمن الداخل مؤسس الدّولة الأموية بالأندلس أن يُرغم الفرنجة على سلمه بطريقة دبلوماسية فائقة، ونفهم مما ورد في المصادر

107. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني الجزري. 1997م. *الكامل في التاريخ*. ج. ص. 125.
108. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي الشافعي. 1379هـ. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. بيروت: دار المعرفة. ص. 195.
109. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس بن عبد الحليم بن أبي القاسم الحراني الحنبلي الدمشقي. 2019م. *جامع المسائل*. ط. 2. ج. 5. محمد عزير شمس (المحقق). الرياض: دار عطاءات العلم. ص. 146.
110. عبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. ص. 216.

الإسلامية أن شارلمان ملك الفرنجة مال بعد عزيمة جيشه في حملته الفاشلة على الأندلس بسياسةٍ تتسم بالوئام، فأصبح هناك تبادل للسّفارات بين الجانبين وحلت العلاقات السلمية محل العلاقات العدائية في الأيام الأخيرة لحكم عبد الرحمن الداخل[111].

وقد شهدت الأندلس حركة دبلوماسية في عهد عبد الرحمن الثاني، فاستخدم القنوات الدبلوماسية من أجل تسوية المنازعات مع الدول المجاورة، والتحالف مع البعض الآخر، فقد بعث الخليفة عبد الرحمن الثاني بمساعده يحي بن الحكم الغزالي إلى زعيم النورمانديين بإحدى الجزر الدنماركية، ليتعاهدوا على الصلح، وقد أنجز مهمته بنجاح، وفي عهد عبد الرحمن الثالث سنة 992هـ، الذي يعد من أعظم الأمراء الأمويين في أسبانيا الإسلامية، فقد حكم لأكثر من 50 عاماً، تمكن عبد الرحمن من إقامة علاقات جيدة مع دول الجوار، واستطاع بدبلوماسيته أن يكسب رجال الحكم في جيان والبيرة، وأن يوحّد أسبانيا تحت سلطته[112].

3- التطور الفني للدبلوماسية في العهد الأموي

قدمت الدبلوماسية بصورة عامّة خدماتٍ جليلة للدولة الأموية، فقد عملت على تثبيت دعائمها وبسط نفوذها، وتنفيذ سياستها الخارجية بالحسنى، ومحاولة توطيد عرى الصداقة بينها وبين غيرها من الدّول، كما حدث في العصر النّبوي وعصر الخلفاء الراشدين. قال الدكتور حسن فتح الباب: "ولم يحدث تطور كبير في مجال السفارات الدبلوماسية في العهد الأموي، وإنّما التطور اقتصر على التقدم الفني متمثلاً في أسلوب تلك السفارات وطابعها التنظيمي وتشعب ميادينها، انعكاساً لتقدمها وبداية للعصر العلمي، والأخذ بأسباب الحضارة، والانفتاح على الحضارات المتنوعة[113]. فعهد الدولة الأموية في دمشق استمر حوالي خمسة وتسعين عاماً، حفلت بالمشاكل والحروب، وبالرّغم من ذلك فقد أثرى ذلك العهد الدبلوماسية بالكثير، وكان له الفضل

111. أبو الفضل، محمد. 1966م. *دراسات في تاريخ حضارة الأندلس*. الإسكندرية: مطبعة دار المعرفة الجامعية. ص. 62.
112. عبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. ص. 212، 291.
113. فتح الباب، حسن. 1970م. *مقومات السفراء في الإسلام*. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ص. 26.

في بدء النهضة العلمية، والتنظيم الإداري الذي اتّسم بالتّفوق والعظمة[114]. وقد برز التطور الفني في ذلك العهد فيما يلي:

أ– ديوان الرسائل:

كان ديوان الرسائل في العهد الأمويّ يختص بالإشراف على الرسائل التي تَرد على الخليفة من الدّول الأجنبية، أو من الوُلاة والرسائل التي تُرسل من الخليفة[115]، وقد تطوّر هذا الديوان وكَثُر عدد من يعملون فيه، وأصبح له محفوظات خاصة يتولى العاملون فيه الإشراف عليها، فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في سجلات أو ملفات خاصة توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها، ليسهل استرجاعها والرجوع إليها[116]، وهذا يدل على أن ديوان الرسائل قد تبوأ منزلةً كبيرةً واستقل بأمره خلال الدولة الأموية. وفي أيّام عبد الملك بن مروان (65هـ) تغيّرت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والأردية والفارسية إلى اللغة العربية في الدولة الإسلامية كافة، وقطع به آخر مظاهر الأعاجم، وكان كاتب الرسائل في ذلك الوقت سلمان بن سعد الخثني من الأردن، وهو أوّل مسلم ولى الدواوين كلّها، وكان يتولى ذلك القبط والروم والعجم[117]، وقد اعتمد الديوان على أداتين في تنفيذ مهامه هما:

- المكاتبات: اهتمت الدولة الأموية باختيار الكاتب في الديوان اهتماماً كبيراً[118]، لأنّه يَدُ الخليفة وعقلُه المفكِّر، ومن ثمّ كان الخلفاء في العهد الأمويّ لا يُولون هذا المنصبَ إلّا من يثقون فيه، وذلك لخطورة المنصب. وفي عهد الوليد بن عبد الملك (86هـ) وسليمان بن عبد الملك (96هـ)، مالت الدولة الأموية

114. سيدة، إسماعيل الكاشف. 1962م. *الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (سلسلة أعلام العرب)*. مصر: وزارة الثقافة. ص. 199.
115. عبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. ص. 213.
116. ماجد، عبد المنعم. 1963م. *تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى*. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية. ص. 199.
117. كرد علي، محمد. 1968م. *الإسلام والحضارة العربية*. ط. 3. ج. 2. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر والتوجيه. ص. 168.
118. تعدد الكتاب في العهد الأموي، نظراً لتعدد مصالح الدولة وأصبح الكتاب خمسة: كتاب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي، وكان كاتب الرسائل أهم الكتاب، وكان خلفاء بني أمية لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم. ابن خلدون. 1900م. *المقدمة*. بيروت: مطبعة بيروت. ص. 118؛ كرد علي، محمد. 1968م. *الإسلام والحضارة العربية*. ص. 171، 177.

إلى إقامة الأعمال العظيمة، فنجد الوليد هو الذي جدّد القراطيس وعظم الخطوط، وفخّم المكاتبات، وتبعه الخلفاء[119].

- السُّفراء والرُّسل: اهتم الأمويون اهتماماً كبيراً باختيار الرُّسل والسفراء، وكانوا يختارون أفضلهم علماً وخلقاً وذكاءً، وفق أدق القواعد، لأنّ السفير يمثّل الخليفة، ويتكلّم ويفاوض ويبرم المعاهدات باسمه[120]. والتطور الذي حدث في اختيار السّفراء في ذلك العهد هو عقد امتحان للسفير الذي يُكلّف بأداء المهمة ممثلاً للخليفة، وفي موقف عبد الملك بن مروان مع سفيره عامر بن شرحبيل الشعبي[121] أصدق شاهدٍ على هذا التطور: "فقد كان هذا المرشح من فقهاء الكوفة وعلمائها وحجة في تاريخ العرب وأنسابها وأشعارهم، ووقع عليه اختيار الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق آنذاك، ليبعث به إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، الذي أراد أن يوفده إلى البلاط البيزنطي سفيراً، وعندما قابل الشعبي الخليفة جرى الاختبار التالي: قال الخليفة: يا شعبي ما العقل؟ قال: ما يُعرّفُك عواقب رُشدك ومواقع غيّك. قال الخليفة: متى يعرف الرجل كمال عقله؟ قال: إذا كان حافظاً للسانه، مدارياً لأهل زمانه، مقبلاً على شأنه. ثم قال الخليفة عبد الملك: يا شعبي أنشدني أحكم ما قالته العرب وأوجزه. فقال الشعبي: يا أمير المؤمنين، قول زهير[122]:

وَمن يَجْعَل المعروفَ من دون عرضه ... يَفِرْهُ وَمن لَا يتقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وقال النابغة[123]:

ولَسْتَ بمستبقٍ أَخا لَا تلمُّهُ ... عَلَى شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

119. كرد علي، محمد. 1968م. *الإسلام والحضارة العربية*. ص. 171، 177.
120. التابعي، محمد. 1988م. *السفارات في الإسلام*. ص. 50.
121. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. د. ت. *سير أعلام النبلاء*. ج. 4. د. م: د. ن. ص. 305.
122. ابن أبي سلمى، زهير. 2008م. 520 – 609م. *ديوان زهير بن أبي سلمى*. بيروت: دار الكتب العلمية.
123. الذبياني، النابغة. 2009م. *ديوان النابغة الذبياني*. محمد أبو الفضل إبراهيم (المحقق). بيروت: دار المعارف.

ويستدل من ذلك أنه كانت تُجرى اختبارات علمية وذهنية من قبل الخلفاء في الدولة الإسلامية، يتم من خلالها اختيار من يقوم بأعمال السّفارة، وذلك لتحديد كفاءتهم[124].

ب- ديوان الخاتم:

كان ديوان الخاتم يقوم بجانب ديوان الرّسل بمثابة المكمل له، وختْم الكُتب والرّسائل يرجع إلى عهد النبي – صلى الله عليه وسلم –، لكنّها لم تُصبح ديواناً مستقلاً إلّا في عهد معاوية، وقد ظلَّ ديوان الخاتم من أهم الدواوين الكبرى ذات الصلة الوثيقة بالعمل الدبلوماسي[125]، "وكان فيه نوّاب مهمتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداعها في هذا الديوان، بعد أن تُحزم بخيطٍ وتُختم بخاتم صاحب الديوان، كما هو الحال اليوم بما يسمّى ديوان الأرشيف أو السّجلات[126]. يشير إلى ذلك ابن خلدون بقوله: "وكان الكاتب يُصدر السّجلات مغلفة، ويكتب في آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السّلطان، وهو طابع منقوش فيه اسم السّلطان وإشارته، ويغمس فيه طين أحمر مذاب بالماء ويسمّى طين الختم، ويُطبع به طرف السّجل عند طيّه وإلصاقه[127].

ج- ديوان البريد:

يعد معاوية – رضي الله عنه – مؤسس الدولة الأموية أوّل من طوّر نظام البريد، فقد أحضر رجالاً دهاقين من الفرس، وأهل عمّال الرّوم فعرّفهم ما يريد، فوضعوا له نظاماً للبريد، ورتّبه على صورة أوسع وضوحاً تكفل وصول الأخبار بسرعة، فأقام الخيول على الطرق المسرّجة لنقل البريد ورتّب له المحطات[128].

وبذلك فإنّ الأمويّين استطاعوا من خلال التّقدم الفنيّ للرسائل والسّفارات، تنظيم العلاقات الدولية بينهم والدول الأخرى في وقتي السِّلم والحرب.

---

124. العدوي، إبراهيم. 1975م. *السفارات الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى*. القاهرة: دار المعارف. ص. 25.
125. عبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. ص. 215 .
126. حسن، حسن إبراهيم. 1963م. *النظم الإسلامية*. بيروت: دار الكتاب اللبناني. ص. 171.
127. ابن خلدون. 1900م. *المقدمة*. ص. 436.
128. عبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. ص. 216.

4- أسباب تطور العلاقات الدبلوماسية في العهد الأموي:

في عهد الدولة الأموية تطوّرت العلاقات الدبلوماسية كثيراً؛ وذلك يرجع للأسباب الآتية:

أ. اتساع الدولة الأموية وامتدادها إلى مناطق واسعة، ومجاورتها للعديد من الدول والحضارات المختلفة فقد امتد نفوذها من أوروبا إلى الصين، مما أدّى إلى حدوث منازعاتٍ ومشاكلَ بسبب هذا الاتساع، وهو أمر تطلّب الاعتماد على إرسال الرسل لتسوية المنازعات[129].

ب. اشتهر الأمويّون بالدّهاء الدبلوماسي، واعتمدوا على الوسائل الدبلوماسية لتثبيت خلافتهم والاستمرار في الحكم. فقد جمعوا بين الشدة واللين والموازنة بينهما، ومازال الدبلوماسيون إلى عصرنا هذا يرددون مقولة "شعرة معاوية"، وهي تعني البقاء على علاقة مع كل الأطراف في كل الظروف والأحوال[130].

ج. اجتذب الأمويّون الأشخاص الذين لهم معرفة تامّة في المفاهيم الدبلوماسية وأصحاب الشخصيات المؤثرة، كالمغيرة بن شعبة الذّي قدم خدماتٍ دبلوماسية جليلة أثناء الحروب ضد الإمبراطورية الساسانية، وكان أيضاً يتقن اللغات الأجنبية[131].

د. تطور التجارة في العهد الأموي أدى إلى اتساع آفاق الدبلوماسية العربية إلى النطاق العالمي، حيث ساعد اتساع التجارة على الاختلاط بأقوام وأمم أخرى، وظهور منازعات يتطلب حلّها بالطرق الدبلوماسية.

هـ. تمكن الأمويّون من تصفية مشاكلهم الداخلية، وقد تميزت فترة حُكمهم بالفتوحات الخارجية، فكان اتصالهم بالعالم الخارجي كبيراً وواسعاً، ممّا أتاح لهم التعامل بالطرق الدبلوماسية مع الشعوب التي جاوروها.

---

129. الفتلاوي، سهيل حسين. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية*. ص. 232.

130. الأندلسي، أحمد عبد ربه. 1984م. *العقد الفريد*. ط. 2. ج. 1. مصر: مطبعة لجنة التأليف.

131. حسن، علي إبراهيم. 1963م. *التاريخ الإسلامي*. ط. 3. بيروت: مكتبة النهضة. ص. 267.

و. تميزت الدولة الأموية بتطورها الحضاري ونظمها الحضارية، وقد اتسمت حضارتها بالانفتاح وتفاعلها واقتباس ما ينسجم مع القيم العربية الإسلامية.

ز. عرف الأمويون الكثير من القواعد الدبلوماسية لتسوية منازعاتهم، فعندما يعجزون عن تحقيق الأهداف بالقوة يلجؤون إلى حلّ مشاكلهم بالطرق الدبلوماسية عن طريق إرسال الرّسل، وكذلك يلجؤون إلى الرسل حتى في حالة الحرب[132].

ح. كان خلفاء بني أميّة يوصون رسلهم الذين يبعثونهم إلى الدول الأجنبية بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لتلك الدول، واحترام سيادتها ونظامها السياسي، وعدم الاتصال بالأشخاص الذين ترتاب منهم تلك الدولة[133].

ط. احترم الأمويون الرسل الأجانب، على أساس أن احترام الرسل يُعد احتراماً لمرسليهم، فعندما أرسل البيزنطيون رسولاً يدعى "يوحنا" في تسوية منازعاتهم مع الأمويّين، استقبله الخليفة معاوية استقبالاً كبيراً، وعقد معه صُلحاً استمر 30 عاماً[134].

ي. اعتمد خلفاء الدولة الأموية على الرّسل مِن مَن لهم قدرة فائقة في ميدان الدبلوماسية، فقد اختار عبد الملك بن مروان رسولاً هو الفقيه عامر بن شرحبيل الشعبي، فأرسله إلى إمبراطور الروم برسالة، وعند الانتهاء من مهمته أرسل معه إمبراطور الروم رسالة إلى عبد الملك، يُعرب فيها عن استغرابه من استتباب أمر الخلافة له، مع وجود عامر بن شرحبيل الشعبي في دولته[135].

ك. تعدد أغراض إرسال الرّسل إلى الخارج في العهد الأموي، بالإضافة لاستخدام الرّسل لأغراض إنهاء

132. الفتلاوي، سهيل حسين. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية*. ص. 232.
133. الخربوطي، علي حسين. 1959م. *تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي*. مصر: مطبعة مصر. ص. 375.
134. العدوي، إبراهيم أحمد. 1963م. *الأمويون والبيزنطيون*. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر. ص. 282.
135. الفتلاوي، سهيل حسين. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية*. ص. 234.

الحرب وتبادل الأسرى؛ فقد استخدموا الرسل من أجل عقد معاهدات التحالف وإقامة علاقات طيبة. وظهرت خلال هذه الفترة اتصالات دبلوماسية كبيرة ونظم جديدة، حيث زود الأمويون رسلهم بخطاب يحمل تعريفاً بشخصيتهم وحدود تخويلهم.

ل. امتاز الأمويون بأسلوب دبلوماسي خاص في استقبال الرسل الأجانب، وهذا يدل على هيبة وعظمة الدولة الأموية. فَقبْل أن يُقابل الرّسل الخلفاء يقوم أحد عمّال الدولة بتلقين الرّسول أصول مقابلة الخليفة، ولا يسكن الرسول إلا في المكان الذي يُخصص له. ويتمتّع الرسول بالحصانات والامتيازات الدبلوماسية، كما كانوا يقومون باطلاعه على الأماكن المهمة للترفيه عنه ويمنحونه الهدايا[136].

م. اهتمت الدولة الأموية بالرسائل الدبلوماسية حتى أصبحت الرسائل الدبلوماسية صناعة يتخصّص فيها من يجيدها، فاهتموا بالرسائل وخصصوا لها ديواناً خاصاً أطلقوا عليه "ديوان الرسائل"، يتولى رئاسته من لهم خبرة في مجال الرسائل والبلاغة. وكانوا يكتبون للدّول الأخرى في شتى المجالات، واختاروا لكتابة هذه الرسائل رجالَ الفقه والبلاغة والأدب والكياسة[137].

ن. أما الديوان الذي يُحفظ فيه الرسائل التي تُرد من الدول الأجنبية فأطلقوا عليه ديوان "الخاتم". وبذلك فقد أسس الأمويون مؤسسة دبلوماسية أطلقوا عليها ديوان الرسائل وديوان الخاتم.

س. استمرار الاتصالات التجارية والدبلوماسية مع أعداء المسلمين من أسباب تطور العلاقات الدبلوماسية للأمويين، فعلى الرغم من أنّ العلاقات بين الدولة الأموية والروم كانت غير جيدة، إلا أنّ الاتصالات الدبلوماسية لم تقطع بينهم. فحينما أراد الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يبنى مسجدَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أوفد إلى إمبراطور الروم، فأرسل له بمائة ألف مثقال من الذهب ومائة عامل فني[138].

136. العدوي، إبراهيم أحمد. 1963م. *الأمويون والبيزنطيون*. ص. 283.

137. حسن، إبراهيم حسن. *النظم الإسلامية*. ص. 449.

138. الفتلاوي، سهيل حسين. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية*. ص. 235.

يخلص الباحث إلى أن الدولة الأموية تميزت باتباعها الأسلوب الدبلوماسي في تثبيت أركان دولتهم ولنشر الدعوة الإسلامية، كما استطاعوا بدبلوماسيتهم توسيع رقعة الدولة الإسلامية وكسب ود الأمراء وشيوخ القبائل العربية وقد تحقق لهم ذلك.

2.1.3.3.2 ثانياً: إبراز مبادئ الدبلوماسية الإسلامية ومقارنتها بالقانون الوضعي

تمهيد: لقد وضع الإسلام العديد من المبادئ[139] العامّة، ودعا المسلمين إلى مُراعاتها وممارستها في علاقتهم مع أنفسهم ومع غيرهم، وقد استندت الدبلوماسية الإسلامية إلى الكثير من هذه المبادئ في إقامة العلاقات الدبلوماسية واستمرارها بين الدول الإسلامية والدّول الأخرى، فقد فتحت أمام الدولة الإسلامية طريق الإيمان بفكرة الأخذ والعطاء مع غيرها من الدّول، وجعلت سياستها مع غيرها قائمة على المرونة والخُلوّ من النّصب، وهذه ناحيةٌ تمثل لنا خاصية أساسية لم يقف على حقيقتها بعض كُتّاب الغرب في مجال الشؤون الدبلوماسية الذين لم يروا في النظام الإسلاميّ غير الحرب، وهذا يتنافى مع حقيقة ما تهدف إليه الدبلوماسية الإسلاميّة. إنّ الدبلوماسية الإسلامية تُخالف بوضوحٍ ما تعارف عليه الآخرون من أساليب العلاقات التي تقوم على الغدر وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق الدّولية، وتقديم المصالح الذّاتيّة وما إلى ذلك.

فالدبلوماسية الإسلاميّة حين تلتزم بهذه المبادئ، فإنها تُقيم علاقاتها الخارجية وِفقاً لمبادئ تَضمّنها الفقه الإسلاميّ "الرباني"، وليس من مُنطلق مبادئ ونُظم وضعها فلاسفة ومفكرون، يغيرونها حسب مصالحهم وظروفهم وأهوائهم. وتقتضي دراسة الدبلوماسية الإسلامية الوقوف على إبراز المبادئ الإسلامية التي استندت عليها الدبلوماسية الإسلاميّة؛ حتى نستطيع الرّد على الذين يقولون إنّ المسلمين لم يعرفوا في علاقاتهم الخارجية

139. المبدأ: مبدأ الشي: هو أوله ومادته التي تكون منها. والجمع "مبادئ" ومبادئ العلم أو الدين، أو الخلق، أو الدستور، أو القانون: قواعده الأساسية التي يقوم عليها. عليه فمبادئ الدبلوماسية الإسلامية: القواعد الأساسية التي تقوم عليها. انظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة. د. ت. *المعجم الوجيز*. القاهرة: د. ن. ص. 39.

إلا لغة الحرب، وأنّ الإسلام لم ينتشر إلّا بحدِ السّيف، وعليه سوف ندرس مبادئ الدبلوماسّية الإسلاميّة ونُقارنها بما جاء في القانون الوضعي.

1- مبدأ تكريم الإنسان:

مِن المبادئ العامّة التي يجب على الأفراد والجماعات والدّول احترامها وتَقدِيسها مبدأ تكريم الإنسان وقد جاءت النُّصوص القرآنية مؤكدة على أنّ الإنسان مخلوقٌ مُكرّم فضله الله تعالى على جميع مخلوقاته، وقد بلغت درجة التّكريم في خلق اللهِ للإنسان أن نفخ فيه من روحه، وجمع في تكوينه بين عنصرين: العنصر المادي "الطّين" والعنصر الرّوحي "روح الله" قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[140]، وليس أعظم في تكريم الإنسان من تقديس حياته والحفاظ عليها، وعدم الاعتداء عليه قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[141].

السُّنة النّبوية تُؤكد ذلك: فقد نَهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن إهانة المسلم وإهدار كرامته أو ضربه فقال: «مَنْ جَرَّدَ ظَهْرَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[142]، وليس تحذير النبي – صلى الله عليه وسلم – خاصاً بالمسلمين فقط، بل وبغيرهم من غير المسلمين غير المحاربين، فإذا كان النّبي – عليه الصلاة والسّلام – يقول: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[143]، فإنّه – صلى الله عليه

140. القرآن. السجدة. 23: 7-9.

141. القرآن. المائدة. 5: 32.

142. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي. 1994م. *المعجم الكبير*. ط. 2. ج. 8. ص. 116. رقم الحديث 7536. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة. ج. 3. ص. 436: ضعيف.

143. ابن ماجة. 2009م. *سنن ابن ماجة*. ج. 3: 639. باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً. رقم الحديث: 2619. قال المحقق: حسن لغيره. قال الألباني: صحيح.

وسلم – يقول: «مَن قَتَلَ نَفْساً مُعاهَداً لَمْ يَرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ»[144]، وقال – صلى الله عليه وسلم –أيضاً: «من قَتَل رجلًا من أهلِ الذِّمَّةِ، لم يَجِدْ رِيحَ الجنةِ»[145].

إنّ حقيقة مبدأ الكرامة التي يُقررها الإسلام للشّخصية الإنسانية هي قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة، وظِلٌّ ظليل ينشره الإسلام على كل فرد، يصون به دمه وعرضه وماله ومسكنه.

2- مبدأ تكريم الإنسان في القانون الوضعي:

فقد نصّت عليه مواثيق المنظمات الدّولية والهيئات الدولية لحقوق الإنسان[146]، ومن بين تِلك الجمعيات؛ الجمعية العامّة للأمم المتحدة التي أصدرت وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في يوم 10 ديسمبر عام 1948م، ولا يُخطئ من يقول: "إنّ حقوق الإنسان هي شعار الرّبع الأخير من القرن العشرين الميلادي، فقد نَشطت حركة الدّفاع عن حقوق الإنسان منذ أواسط السّبعينات من هذا القرن نشاطاً فاق كل ما سبق هذه الحركة، وكان نشاطاً عالمياً في انتشاره، فتوجهت أنظار أنصارِ هذه الحركة المتجددة إلى كلِّ ركنٍ من أركان المعمورة ينشئون جمعياتِ حقوق الإنسان[147].

ومِن مواد هذا الإعلان التي تؤكد على حماية كرامة الإنسان وحرّيته؛ ما نصّت عليه المادة الأُولى: "يُولد جميع النّاس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم البعض بروح الإخاء". وتنصُّ المادة الثالثة على الآتي: "لكل فردٍ الحق في الحياة والحرّية وسلامة شخصه"، وتنص المادة الخامسة: "لا يُعرّض أيّ إنسان للتّعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الإطاحة

144. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. ج. 4: 99. باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم. رقم الحديث: 3166.

145. أبو داود. 2009م. *سنن أبي داود*. ج. 4: 389. باب في الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته. رقم الحديث: 2760. وصحّح الحديث الألباني.

146. الوثائق الدولية التسع لحقوق الإنسان هي: ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والعهد الأوربي، والميثاق الامريكي الأوربي، والإعلان الأمريكي، والعهد الأمريكي، والميثاق الأفريقي. الغنيمي، محمد طلعت. 2007م. *قانون السلام في الإسلام: دراسة مقارنة*. الإسكندرية: منشآت المعارف. ص. 395.

147. العوا، محمد سليم. 2004م. *حقوق الإنسان في الإسلام*. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلام. ص. 2.

بالكرامة"[148]. وجعل من أهداف الجمعية أيضاً توفير التعاون الدولي للدفاع عن حقوق الإنسان، وتوفير الحريّات لجميع النّاس. ولكن ما يؤخذ على هذا الميثاق؛ أنّه لم يتضمن فرض أيّ التزام على أيّ طرفٍ من الأطراف، بحيث لا يكون هناك جزاء على من يخالفه[149].

ويرى الباحث الآتي:

أ. لقد جاءت موادُ هذه الوثيقة من النّاحية النّظرية مشابهة لما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، وهذا دليل على أسبقية الإسلام في تقرير هذه الحقوق وإرساء دعائمها.

ب. إنّ الهدف من استناد الدّبلوماسية الإسلاميّة على مبدأ تكريم الإنسان هو: الارتفاع بالإنسان من مستوى الانحطاط والتّدني إلى مستوى العلوّ والفوقية، دون النظر إلى اللون أو الجنسية أو اللّغة وحتى الدّين، وهذا ما حرص عليه النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – أن يودع هذا المعنى الجليل في عقول المسلمين وقلوبهم من بعده، فقال في حجّة الوداع: "أيّها الناس، إنّ ربكم واحد، إنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيٍّ فضل على أعجمي، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ فضل إلّا بالتّقوى"[150]. وبذلك فلا صحّة لما يزعمه بعض كتُاب الغرب أنّ الكرامة لهم وحدهم.

ج. إنّ مبدأ حماية كرامة الإنسان وغيرها من الحقوق التي يتفاخر الغرب بحمايتها تعيش في أزمة حقيقيّة بسبب الظلم والتعنت والخواء الرّوحي؛ الذي يطبع على النظام العالمي الجديد. إذ تقوم السّياسات الغربية على الفرز والانتقاء في تطبيقها لهذا المبدأ؛ فهي بممارستها المغلوطة تُرسِّخ لعلو الإنسان الأوروبي

148. انظر وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. اعتمدت ونشرت على الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 217 ألف (د-3) المؤرخ في 10 ديسمبر 1948م.

149. عبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. ص. 73.

150. ابن هشام. 1955م. *السيرة النبوية*. ج. 1. ص. 351.

والأمريكي على نظيره في دول العالم الإسلاميّ.

د. إنّ الجرائم التي تُرتكب في حقِّ الإنسان، تبدو من هولها وبشاعتها كأنّها كابوس يعجز العقل المتحضِّر على تصديق حدوثه، وللأسف تواطأت المنظّمات والهيئات التي تزعم أنها أقيمت لحماية حقوق الإنسان مع كل المجرمين الذين انتهكوا حقوق الإنسان، وخاصّة بالإنسان المسلم، ولا يزيد دورها في الظّاهر إلا على الشجب والإدانة والاستنكار، ولكن في الحقيقة؛ إنّ المسألةَ هي مؤامرةٌ يلعب فيها كل طرفٍ الدّور المرسوم له بمهارةٍ فائقة.

3- مبدأ التّعاون الدّولي وتحريم العدوان:

التّعاون الإنساني في الإسلام مبدأ من المبادئ اللّازمة في علاقاتِ الجماعات الإنسانيّة؛ لأنّه من الضّروري أن تقوم العلاقات بين الدّول على أساس التعايش السّلميّ وعدم الاعتداء، ولقد جاءت النّصوص القرآنية تحثُّ على التّعاون سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدّول. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[151]. وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[152]. قال الإمام القُرطبي: "هو أمر لجميع الخلق بالتّعاون على البرِّ والتَّقوى، أي ليُعن بعضكم بعضا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عمَّا نهى الله عنه وامتنعوا منه"[153].

إذاً التّعاون بين بني آدم مطلوبٌ وحيويٌّ، وضرورةٌ لا مفرَّ منها ما دام قد وُجد الكُلُّ على ظهرِ أرضٍ واحدة. ولذلك ما حدثت المجاعات وظهرت الحاجة إلا حين وضعت الفوارق بين البشر.

أمّا في السُّنّة النّبوية: فإنّه كان من مبادئ النّبي – صلى الله عليه وسلم – الوقوف مع الخير ونصرة

151. القرآن. الحجرات.49: 13.

152. القرآن. المائدة. 5: 2.

153 القرطبي، أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي شمس الدين. 1964م. *الجامع لأحكام القرآن*. ج. 2. القاهرة: دار الكتب المصرية.ص. 2145.

الضعيف، وقد حضر النّبي – عليه الصلاة والسلام – حِلفاً لبعض أشراف قريش سمّيَ "حِلفُ الفُضول"، تعاقدوا فيه على نصرة المظلوم والضّعيف، وقد تحدّث عنه النّبي – صلى الله عليه وسلم – بعد بِعثته فقال: "لقد شهدت مع عُمومتي حِلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أود لو أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت"[154]. لأنّ فيه تعاوناً على الخير والبرّ، ولذا ترك في نفس النّبي – صلى الله عليه وسلم – أثراً عميقاً، وبعد هِجرته – صلّى الله عليه وسلم – إلى المدينة، نَفّذَ مبدأ التّعاون الدّولي، فقد عقد ميثاقاً دائماً لتنظيم الحياة العامّة، وتحديد العلاقات بين سكّان المدينة على أساس التّعاون، ومنع الأذى "وأن يتضافروا على منع الاعتداء وإقامة الحق؛ أو بعبارةٍ أخرى ما يُسمّى في هذا العصر بالتّعايش السلمي"[155]، وهكذا أُقيمت دولة الإسلام على أساس التّعاون على البّر ومد يد العون لمن طلب منها ذلك، ومد يد المسالمة لمن سالمها، ولقد أخذت الدبلوماسية الإسلامية بهذا المبدأ؛ فكان تعاونها مع الشعوب والعطاء الذي تُقدِّمه نابعاً من نفس تعاون وعطاء الدّولة الإسلاميّة السائرة على المنهج الإسلامي في العلاقات. يقول الدكتور محمد الصّادق عفيفي: "فالدّبلوماسية الإسلامية إذاً تتّسم بالمرونة في إقامة العلاقات مع غيرها من الدّول، جاعلة نصب عينيها التّعاون وتقديم الخبرات وضروب المعرفة المستمدة من منطق روح الإسلام، وليست المكاسب المادية المحضة، ولذلك عندما تؤصّل في تعاملها مبادئ الحرية والإخاء والمساواة فهو تأصيل عن عقيدة مبرأة من العيوب"[156].

4- مبدأ التّعاون الدّولي وتحريم العدوان في القانون الوضعي:

فيعتبر هذا المبدأ من الأعمدة الأساسّية التي قام عليها النّظام القانوني للأُمم المتّحدة الحاكمة للعلاقات

154. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري. 1987م. *الكامل في التاريخ*. أبو الفداء عبد الله القاضي (المحقق). ج. 2. بيروت: دار الكتب العلمية. ص. 27.

155. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحي بن شرف. 1392هـ. *شرح النووي على مسلم*. ط. 2. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ص. 82؛ أبو زهرة، محمد أحمد. 1995م. *العلاقات الدولية في الإسلام*. ص. 24.

156. عفيفي، محمد الصادق. 1986م. *التبادل الدبلوماسي في الإسلام*. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية. ص. 45.

الدّولية، وقد دعت مبادئ الميثاق الأساسيّة للجمعية العامّة جميع الدّول إلى إقامة علاقات الودّ والتّعاون فيما بينها، وإلى تسوية النّزاعات بالوسائل السّلمية[157]، وانتهت الجمعيّة العامة للأمم المتحدة إلى تبني صيغةٍ مرنة لتعريف العدوان الذي يؤدي إلى الإخلال بعلاقات الود والتّعاون الصادر في 18 ديسمبر 1974م؛ الذي جاء فيه: "العدوان هو: استعمال دولة القوة المسلّحة ضد سيادة دولةٍ أخرى، أو سلامة أراضيها أو استقلالها السّياسي بأي طريقة أخرى لا تتفق مع ميثاق الأمم المتحدة، ووفقاً لهذا التعريف"[158].

يرى الباحث: أنّ مبدأ التّعاوُن وتحريم العدوان قد أقرّه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، وعملت به الدبلوماسيّة الإسلاميّة منذ بداية الدولة الإسلامية؛ وذلك يُعد دليلاً على تأثر القانون الوضعي بما جاء به الإسلام في هذا المجال. إنّ هذا المبدأ في القانون الوضعي وإن كان قريباً من الذي دعا إليه الإسلام إلّا أنّ الاستقراء لأنظمة السياسة الوضعية أثبت أنه من أيسر الأشياء أن توضع المبادئ وغيرها فتكون حبراً على ورق، فإذا جاء وقت التّطبيق العملي، تمزّقت تلك المبادئ وضاعت تحت ضغط الأقوياء.

5- مبدأ عدم التدخل في الشؤون الدّاخلية للدّول واحترام نُظمها وقوانينها:

يُعد هذا المبدأ من المبادئ الجوهريّة للدبلوماسية الإسلامية، فالفقه الإسلاميّ لم يتخلّف عن ضرورة مراعاة هذا المبدأ والمناداة به. فالقاعدة العامّة في الإسلام تُقر أنّه لا يجوز للمبعوث الدّبلوماسي أن يتدخل في شؤون الدولة الدّاخلية، وأن يحترم قوانينها وسيادتها، ومن ذلك: "ليس لأهل الذّمة أن يكاتبوا أهل دينهم ولا يخبروهم بشيءٍ من أخبار المسلمين مما فيه مضرّة على المسلمين، ومن فعل منهم وجبت عقوبته باتفاق المسلمين، وفي أحد القوانين يكون نقض عهده وحل دمه"[159].

157. تم التوقيع على هذه المواثيق في 26 يونيو سنة 1945م. ودخلت حيز التنفيذ بدء من 24 أكتوبر 1945م.

158. عبد الرحمن، مصطفى سيد. 1998م. *قانون التنظيم الدولي*. القاهرة: دار النهضة العربية. ص. 60.

159. ابن تيميّة، تقي الدين أبو العباس بن عبد الحليم بن أبي القاسم الحراني الحنبلي الدمشقي. 1988م. *مجموعة الفتاوى الكبرى*. ج. 4. د. م.: دار المناس. ص. 190.

ولذا كانت الدّولة الإسلاميّة توصي سُفراءها بعدم التّدخل في شؤون الدّولة الدّاخليّة[160]، وكذلك بالمقابل دعت سفراء الدّول الأجنبيّة إلى احترام نظم الدولة الإسلامية وقوانينها، فقد اشترط الفقهاء: أنّ السُّفراء غير المسلمين في الدّولة الإسلامية يجب عليهم أن يلتزموا بأحكام الشّريعة الإسلاميّة: فلا ينبغي أن يبايع الرّسول بشيء من الخمر والخنزير ولا بالربا، وما أشبه ذلك؛ لأن حكمه حكم الإسلام وأهله، ولا يحل أن يُباع في دار الإسلام ما حرّم الله"[161].

6- مبدأ عدم التدخل في الشؤون الدّاخلية للدّول واحترام نُظمها وقوانينها في القانون الوضعي:

فقد نصّت مبادئ الميثاق الأساسيّة للجمعيّة العامة للأمم المتحدة في إعلان رقم (231) لعام 1965م؛ على عدم جواز التّدخل في الشؤون الدّاخلية للدّول، وحماية استقلالها وسيادتها من خطر كل تدخل مسلّح أو غير مسلّح، وكل تهديد يستهدف شخصية الدولة، ولكن الدّول الغربية هي أوّل من قام برفض هذا المبدأ ومخالفته تحت ذريعة حقوق الإنسان وحماية الأقليّات؛ وذلك لتحقيق مصالح وأهداف سياسيّة لا أخلاقيّة في بعض الأحيان[162].

7- مبدأ العدالة:

لمبدأ العدالة في العلاقات الدوليّة دور كبير في استقرار الدّول ونظامها السّياسي، وتميز مكانها بين الدّول والأمم، ومن ثمّ استندت الدّبلوماسية الإسلاميّة في علاقاتها إلى هذا المبدأ، حتى تحقق أهدافها النّبيلة والسّامية. وقد جاءت النّصوص القرآنية تدعو لتطبيق هذا المبدأ؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

160. القلقشندي، أبو العباس أحمد. 1929م. *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*. ج. 10. ص. 310.
161. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري. 1980م. *الخراج*. ص. 767.
162. عبد الرحمن، محمد عبد الرحمن. 2006م. *الدبلوماسية الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله*. ص. 90.

اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[163].

يقول الإمام الجصاص عن هذه الآية فيما تضمّنته من الأمر بالعدل مع المحقّ والمبطل: "وقد تضمّن ذلك الأمر بالعدل على المحق والمبطل، وحُكِمَ بأنّ كُفر الكافرين وظُلمهم لا يمنع من العدل بينهم"[164]، وبما أنّ الخِطاب القرآني يتميز بشموليته، فإنّه لا يتوقف عند قضية واحدة من قضايا العدل، بل دعا إلى العدل الدائم في المجتمع الإنساني؛ لأنه أمر إلهي يشمل الجميع، وجاءت السُّنة النّبوية تدعو وتعمل بهذا المبدأ وتطبيقه ومن ذلك: ما جاء في المعاهدة التي عقدها النّبي – صلى الله عليه وسلم – مع اليهود في المدينة من "أنه لا يأثم امرؤ بحليفه"، وقد وصل العدل الإسلامي قمّته عندما انصف الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الرجل المصريَّ المخالف له في العقيدة، وأخذ الحق له من ابن واليه على مصر "عمر بن العاص"، لأنّه اعتدى عليه، وقال لعمرو بن العاص: متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ثم التفت إلى المصري وقال: "انصرف راشداً، فإن رابك ريبٌ فاكتب لي"[165]. وقد كان لهذا العدل الآثار الحسنة والثّمار الطيّبة في الاستقرار والنّصر، ودخول غير المسلمين في الإسلام. يقول الدكتور عبد الرّحمن عزّام: "القواعد الإسلاميّة هي الأُسس الصحيحة التي جمعت بين ما يقتضيه الإنصاف وكبح أهواء النّفوس الشّريرة، وما يقتضيه صون الدّماء واقامة السّلم الدّائم على حرمة مقدّسة"[166].

8- مبدأ العدالة في القانون الوضعي:

دعا الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان الصادر من الجمعية العامّة للأمم المتحدة، أن لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو

163. القرآن. المائدة. 5: 8.

164. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي. د. ت. *أحكام القرآن*. ج. 2. بيروت: دار الكتاب العربي. ص. 397.

165. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرّحمن بن أبي الحسن. 1974م. *تاريخ عمر بن الخطاب*. دمشق: دار إحياء علوم الدين. ص. 119.

166. عبد الرحمن، عزام. 2011م. *الرسالة الخالدة*. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية. ص. 345.

الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون تفرقة بين الرجال والنساء[167].

إنّ الباحث في العلاقات الدّوليّة لا يجد مفهوم العدل أحد الرّكائز الأساسية التي تقوم عليها العلاقات الدولية، وهذا ما يؤكده الدكتور محمد سليم العوا بقوله: "إنّ القانون الوضعي لا نكاد نجد فيه ذكراً للعدالة، اللّهم إلّا في ميادين القضاء حيث يعبر في اللّغة الإنجليزية مثلاً عن القضاء والعدل بكلمة"*justice*" ولكنّنا إذا تركنا ميدان القضاء إلى ميدان النّظم السياسية والدّستورية، فلا نجد ذكراً للعدالة ولا إشارة لها"[168] هذا يخالف الإسلام الذي يجعل العدل هو الأساس الذي يقوم عليه النّظام السّياسي للدّولة، وبالتّالي تقوم عليه العلاقات الدولية مع الآخرين، ومن ثمّ النّاظر إلى النّظام الدّولي الجديد يرى أنّه ينطلق من أرضية تعصبية، تتمثّل في ازدواجية المعايير، والكيل بمكيالين "فقدان مبدأ العدالة" في القضايا الدّولية، وخاصّة القضايا المتعلّقة بالمسلمين.

9- مبدأ المساواة:

المساواة مبدأ جوهريٌّ لإقامة نظام دوليّ عادل، فكما دعا الإسلام إلى العدل في العلاقات، فقد دعا في الوقت نفسه إلى المساواة، فكلّ من العدل والمساواة تأكيد للآخر. ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ الإسلام حين قرّر هذا المبدأ جاء بمبدأ جديد، وكان ذلك أسبق في المقام ممّا هو معروف عن التّشريعات في العصر الحديث[169].

وقد جاءت النّصوص القرآنية تدعو إلى هذا المبدأ؛ فَمِن القرآن الكريم: إنه جاء في كثيرٍ من الآيات نداء جميع البشر "يا بني آدم"، "يا أيّها النّاس"، وأنّ هذه النِّداءات تدلّ على "أنّ الإنسانيّة معنى مشترك

167. عشماوي، عبد الفتاح بن سليمان. د. ت. *حقوق الإنسان في الإسلام*. المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ص. 190.
168. العوا، محمد سليم. 1975م. *النظم السياسية للدولة الإسلامية*. ص. 121.
169. عودة، عبد القادر. 1949م. *التشريع الجنائي مقارنة بالقانون الوضعي*. بيروت: دار الكتاب العربي. ص. 27.

يتساوى سكان الأرض في حقيقته ونتيجته، ولا فرق بين أهل المناطق الحارّة والمناطق الباردة، ولا فرق بينهم الآن وبين آبائهم من قرون مضت أو ذريتهم بعد قرون مقبلة"[170]. وعندما يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[171] فإنّ الله عزّ وجلّ يدعو النّاس جميعاً ولا يدعو أمّة بعينها؛ إذن ليس هناك ما يبرّر أن يدّعي بعض النّاس السّمو على البعض الأخر.

وقد شدّد النّبي – صلى الله عليه وسلم – على دعاة التّمييز والتّفريق بين النّاس، فروى أبوهريرة – رضي الله عنه – عن النّبي – عليه الصلاة والسّلام – أنّه قال: "إنّ الله عزّ وجل أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخر الآباء، والنّاس بنو آدم، وآدم خُلق من تراب، مؤمن تقي، وفاجر شقي، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنّما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعلان التي تدفع النتن بأنفها"[172]. ولذلك فإنّ الإسلام قد قرّر المساواة بكل صورها المختلفة؛ مُساواة أمام القانون، مساواة أمام القضاء، مساواة في الحقوق السّياسية، المساواة في الحقوق المدنيّة والمنافع الاجتماعيّة، وقد كان لذلك نتائج إيجابيّة في نشر دعوة الإسلام ودخول كثير من الشّعوب في الإسلام. وكان هذا المبدأ كما يراه كثيرٌ من المستشرقين: "مصدراً مُهماً من مصادر القوّة عند المسلمين"[173]، ومبدأ هاماً من مبادئ الدبلوماسيّة الإسلامية الذي لا غنى عنه في العلاقات.

11- مبدأ المساواة في القانون الوضعي:

فأشار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصّادر عن الجمعية العامّة للأمم المتحدة في المادة الأولى منه إلى هذا المبدأ: "إن النّاس جميعاً يُولدون أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا

---

170. الغزالي، محمّد. 1984م. *حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة*. ط. 3. القاهرة: دار الكتب الإسلامية. ص. 95.

171. القرآن. الحجرات. 13:49.

172. أبو داود. 2009م. *سنن أبي داود*. ج. 4: 333. كتاب الأدب في التفاخر بالأحساب. رقم الحديث: 5116. قال المحقّق: حكم الألباني: حسن.

173. أرنولد، توماس. 1971م. *الدعوة إلى الإسلام*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ص. 246.

بروحِ الإخاء". وفي المادة السابعة منه جاء: "كل النّاس سواسية أمام القانون، ولهم الحقُّ في التّمتع بحماية متكافئة عنه دون أية تفرقة، كما أنّ لهم جميعاً الحقّ في حماية متساوية ضدّ أيّ تمييز يخل بهذا الإعلان، وضد أيّ تحريضٍ على تمييز كهذا"[174].

ويرى الباحث أن هذا المبدأ أكدّه الإسلام وأقرّه مُنذ أربعة عشر قرناً فهو دين الرّحمة والإخاء، أمّا الدُّول الكُبرى في العصر الحديث فهي لا تلتزم بضمان تنفيذ ما تقرّره المنظمات الدوليّة في مبدأ المساواة، بل إنّ المصالح الذّاتية والميول الأنانية تحكم هؤلاء عند تفسيرهم لمبدأ المساواة.

11- مبدأ التّسامح:

مبدأ التّسامح مِن المبادئ التي تستند عليها الدّبلوماسية الإسلاميّة؛ لأنّه من المبادئ الأصيلة في الإسلام، وله دور كبير في توطيد العلاقات بين النّاس، وقد جاءت النّصوص القرآنية تدعو إلى تطبيق هذا المبدأ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[175]. فالتسامح في رد العدوان قد يجلب الأمن والخير وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[176].

ففي هذه الآية "الآية ترخيص من الله تعالى في صِلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم من جميع أصناف المِلل والأديان أن يبرّوهم ويصلونهم"[177]، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن

174. عشماوي، عبد الفتاح بن سليمان. د. ت. *حقوق الإنسان في الإسلام*. ص. 198.

175. القرآن. فصلت. 34:41.

176. القرآن. الممتحنة. 8:60.

177. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر. 2001م. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. ص. 571؛ والقاسمي، جمال الدين. 1994م. *محاسن التأويل*. محمد فؤاد عبد الباقي (المحقق). ج. 7. بيروت: مؤسسة التاريخ العربي. ص. 81.

قَبْلِكُمْ﴾[178]. فهنا أباح الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب واعتبر طعامهم حلالاً طيباً، كما أباح مصاهرتهم والتزوج منهم، والمصاهرة أحد الرابطين الأساسيين اللذين يربطان البشر ببعضهم ببعض[179]، وجاء في السُّنة النّبوية ما يوضح لنا مدى تطبيق النّبي – صلى الله عليه وسلم – لمبدأ التّسامح في علاقاته، سواء مع المشركين أو أهل الكتاب أو غيرهم، ومن ذلك: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – بعث على أهل مكة مالاً لما قحطوا لِيُوزّع على فقرائهم[180]، هذا على الرغم مما قاساه رسول الله من المشركين في مكة وما لاقاه وأصحابه – رضي الله عنهم – وقوله – صلى الله عليه وسلم – لبعض الجند: "لا تقتلوا أصحاب الصّوامع"[181].

فالرّاهب الذي ينقطع للعبادة يوصي النّبي – عليه الصّلاة والسّلام – بعدم قتله لأنّه رجلُ دينٍ تمثّلت فيه العقيدة، وكان من الممكن أن يكون الحقد عليه أكبر، لكنّ الإسلام حين يجاهد لا يحقد ولا يظلم، بل هو التُّسامح والعدل، وورد، أنّ النّبي – صلى الله عليه وسلّم – تصدّق على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم[182]، ومن التّسامح العظيم الخاص بأقباط مصر؛ ما أوصى به رسول الله – عليه الصلاة والسّلام – قبل وفاته؛ فقد ثبت عن أم سلمة – رضي الله عنها – أن رسول الله – عليه الصّلاة والسّلام – أوصى عند وفاته فقال: "الله الله في قبط مصر، فأنّكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله"[183].

وتوجد صورة وثيقة تاريخية تُلقي الضّوء على سياسة التّسامح الإسلامية، أصدرها الخليفة المكتفي

---

178. القرآن. المائدة. 5:5.

179. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. د.ت. *النكت والعيون*. السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (المحقق). بيروت: دار الكتب العلمية. ص. 17.

180. الشيباني، أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد. 1971م. *شرح السير الكبير*. صلاح الدين المنجد (المحقق). ج. 1. القاهرة: مطبعة شركة الإعلانات الشرقية. ص. 111.

181. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن خواستي العبسي. 1409هـ. *المصنف في الأحاديث والآثار*. كمال يوسف الحوت (المحقق). رياض: مكتبة الرشد. ص. 484.

182 ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني. 1986م. *الأموال لابن زنجويه*. شاكر ذيب فياض (المحقق). السعودية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ص. 1211.

183 الطبراني. 1994م. *المعجم الكبير*. ج. 23: 265. رقم الحديث: 561. قال الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة، ج. 7، ص. 307، رقم 3113، قال الهيثميّ: رجاله رجال الصّحيح.

العبّاسي سنة 1138هـ إلى البطريق ابديشو النّسطوري، وفيها يمنح الخليفة رعاياه النّصارى كل ضروب الحرية الدّينية[184]؛ يقول د. منجانا أمين مكتبة "رينالدز" مُكتشف هذه الوثيقة: "كنّا نشعر دائماً بالحاجة إلى وثيقةٍ تُلقي الضّوء على العلائق التي كانت سائدة بين الإسلام الرّسمي والنّصرانية الرّسمية في عصر كان للإسلام فيه حق الحياة والموت على ملايين من رعايا النّصارى..، وإنّ هذه الوثيقة صادرة من ديوان خليفةٍ عباسي"[185].

12- مبدأ التّسامح في القانون الوضعي:

نصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصّادر من الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1948م، على هذا المبدأ في المادة (26) وفيها: "يجب أن تهدف التّربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماءً كاملاً، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريّات الأساسية، وتنمية التّفاهم والتّسامح والصّداقة بين جميع الشّعوب والجماعات العنصرية أو الدّينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السّلام"[186].

ويرى الباحث: إنّ ما جاء من نص لمبدأ التّسامح في القانون الوضعي من النّاحية النّظرية، قريبٌ ممّا أقرّه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، ولكنّ الواقع يختلف تماماً عن ذلك؛ لأنّ مبدأ التّسامح يكاد يكون معدوماً في النّظام الدّولي الوضعي؛ فأين التّسامح والرّحمة في حرب البوسنة وكوسوفا والشّيشان وغيرها؟! هذا ولم يقف الأمر على ذلك، بل حاولت الدّول الكبرى تشويه صورة التّسامح الإسلامي، فكان من سياستها في ذلك أنّها استخدمت الأقليات المسيحية في الشّرق الأوسط ذريعةً للتدخل في شؤون الدّول الإسلامية. إنّ مبدأ التّسامح الّذي جاء به الإسلام لم تعرف الإنسانية له نظير بشهادة المسيحيين أنفسهم، فقد قال أحدهم: "إنّ الفتح الإسلامي لمصر كان بداية الأمان لأقباط مصر، وإنهاء عصور الاضطهاد الدّيني الذي عانوا منه تحت حكم

184. نشرت جريدة "منشستر جارديان". 1927م. ترجمة هذه الوثيقة وتعليق الدكتور منجانا، أنظر: عنان، محمد عبد الله. 1934م. *مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام*. ط. 2. القاهرة: دار الكتب المصرية. ص. 130.

185. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري. 1997م. *الكامل في التاريخ*. ج. 6. ص. 558؛ وعنان، محمد عبد الله. 1934م. *مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام*. ص. 130.

186. انظر الوثيقة بالكامل: التابعي، محمد. 1988م. *السفارات في الإسلام*. ص. 194.

الرّومان وغيرهم"[187]. وهذا يدلّ على أن ما يُثيره المغرضون ضدّ الإسلام وبلاده يُكذّبه الواقع.

13- مبدأ الوفاء بالعهود والمواثيق:

لقد أعطى الإسلام لمبدأ الوفاء بالعهود والمواثيق اهتماماً بالغاً لم يعطه له أي نظام أو قانون سواه، ودعا إلى تطبيق هذا المبدأ حتى تسير العلاقات بين الدّول سيراً طبيعياً وتؤتى الدُّبلوماسية ثمارها المرجوة. وقد جاء في القرآن الكريم ما يلي: قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾[188]. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ من ينقض عهده من الدّول، يكون كتلك المرأة الحمقاء التي تغزل وتقوّي غزلها ثمّ تنقضه، وهذه دلالةٌ على أنّ الوفاء بالعهود فيه توثيق للعلاقات وفي نقضها تفتيتٌ لها. وفي المقابل امتدح الله أُولئك الذين يوفون بعهد الله فقال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[189]. وقد حرّم الإسلام نصرة المسلم على غير المسلم وبيده ميثاق أو عهد. قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[190].

وجاء في السُّنة النّبوية ما يدعو إلى تطبيق هذا المبدأ ومن ذلك: ما رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: "ما يمنعني أن أشهد بدراً إلّا أنّي خرجت أنا وأبي حسيل، قال: فأخذنا كفّار قريش، قالوا: إنّكم تريدون محمداً، فَقُلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منّا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبرناه فقال: "انصرفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين بالله عليهم"[191].

187. انظر: د.م. 1998م. "من أنت". *جريدة الأهرام المصرية*. القاهرة، مصر. 1 ديسمبر. ص. 11.

188. القرآن. النحل. 91:16.

189. القرآن. البقرة. 177:2

190. القرآن. الأنفال. 8: 72.

191. مسلم. د.ت. *صحيح مسلم*. ج. 3: 1414. باب الوفاء بالعهد. رقم الحديث: 1787.

14- مبدأ الوفاء بالعهود والمواثيق في القانون الوضعي:

تُشير اتفاقيّة فيينا للعلاقات الدبلوماسيّة 1961م في ديباجتها إلى هذا المبدأ فتقول: "إذ تذكر أنه منذ زمن بعيد وشعوب كل البلدان تعترف بنظام الممثلين الدبلوماسيين، وتعرف أهداف ومبادئ ميثاق هيئة الأمم المتحدة الخاصة بالمساواة في حق سيادة كل الدول وفي المحافظة على السلام والأمن الدوليين، وفي تنمية علاقات الصداقة بين الأمم، وهي مقتنعة بأن اتفاقية دولية عن العلاقات والامتيازات والحصانات الدبلوماسية ستساعد على تحسين علاقات الصداقة بين البلدان مهما تباينت نظمها الدستورية والاجتماعية"[192].

ويرى الباحث الآتي:

أولاً: إن المواقف التي ذكرناها وغيرها توضح مبدأ الإسلام الذي جعل الوفاء بالعهود والمواثيق من أصول الشّريعة، فتحترم العهود والمواثيق التي تعقد في دائرة الحق، وإن كان مع قومٍ غير مسلمين، لأنّها عدلٌ والعدلُ لا يعرف الزّمان ولا المكان ولا الجنس ولا اللّون، ولا يختصّ بالعقائد والأديان، وإنّما يتعبّد به بذاته وحقيقته، وهذه من مميزات العلاقات في النّظام الإسلامي.

ثانياً: أمّا فيما يختصّ بالقانون الوضعي في هذا المجال فما نراه على أرض الواقع من نقضٍ للعهود، والتّعالي والغرور، وتقديم المصالح على حساب الآخرين، واتخاذ العهود ذريعةً للغش والمماطلة؛ لشاهدُ صدق على انحراف الدّول الغربية في علاقاتها ومخالفتها للنّظريات التي قام بوضعها مفكروها وفقهاؤها.

ثالثاً: لم يعد في السّنوات الأخيرة للعهود أَدبٌ ولا حُرمة، وقد استندت بعض الدّول الغربية إلى القوّة في نقضها للعهود والمواثيق، ويبدو ذلك جلياً وواضحاً في المعاهدات التي تُعقد بين إسرائيل والفلسطينيين، أو بينها وبين سوريا ولبنان، فإنّ نقضها دائماً يكون من طرف إسرائيل تحت حماية القُطب الأوحد أمريكا.

15- مبدأ السّلام العالمي:

192. انظر: الأمم المتحدة. 1961م. *اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية*. نيو يورك: الأمم المتحدة.

لا شك أنّ ما تقدّم من مبادئ لو طُبّقت من قبل جميع الدّول لنتج عن ذلك تحقيق هذا المبدأ "سيادة السّلام في العالم"، الذي تهدف إليه الدّبلوماسية الإسلاميّة من خلال علاقاتها، ومن نُصوص القرآن في ذلك، قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[193]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[194]، لكن تختلف العلاقة مع أولئك الذين يقفون من الإسلام موقف العداء، ويَحولون بينه وبين النّاس، فهؤلاء العلاقة معهم واضحة هي الحرب حتى يذعنوا إلى أمرِ الله عزّ وجل، ولذلك أمرنا الله أن نُهيّئ أنفسنا ونكون على استعدادٍ تجاه هذه المواقف قال تعالى :﴿وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[195]، فالسّلام في الإسلام لا يُجزّأ ولا ينشد في حقل مفرد من حقول الحياة وإنّما يحاول تحقيقه في كل حقل، بذلك تُصبِح كلمة السّلام التي يعنيها الإسلام ذات دلالةٍ أعمق وأشمل من معناها الذي تعارفت عليه الدّول هذه الأيام[196].

16- مبدأ السّلام العالمي في القانون الوضعي:

يتمثل فيما قامت به المنظمات التي عملت بمختلف اتجاهاتها، وكذلك الجهود الغربية للسّاسة والمفكرين الغربيين على إبراز مبدأ السلام العالمي كأحد المبادئ العامة للعلاقات الدولية، والأمم المتحدة هي المؤسسة الأولى التي تعمل على حفظ السّلام العالمي، تضاف إليها مؤسسات أخرى تعمل من أجل السّلام وتنادي به[197].

193. القرآن. البقرة. 208:2.

194. القرآن. الأنفال. 61:8.

195. القرآن. الأنفال. 60:8.

196. سيد، قطب. 1951م. *السلام العالمي والإسلام*. ط. 3. القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي. ص. 32.

197. الجمالي، محمد فاضل. 1986م. "الإسلام العالمي والسلام". *من بحوث ملتقى واقع الإسلام وتحديات العصر*. تونس: الجامعة التونسية. ص. 65.

ويرى الباحث: أنّ ما تُنادي به المنظمات والمؤسسات الدّولية لا يتطابق وأرض الواقع باعتراف القادة والزّعماء الغربيين أنفسهم، يقول توماس هوبز: "القوّة عامل حاسم في السّلوك الإنساني، فالإنسان يسعى دون هوادة نحو امتلاك المزيد من القوة، ولا يتوقف هذا السّعي إلا عند الموت، والعهود والمواثيق التي لا تظلها السّيوف لا طاقة لها على حماية الإنسان"[198]، وهنا نفهم أنّ هؤلاء وإن دعوا للسّلام فإنّما ينظرون إليه من خلال مصالحهم الخاصّة، وإنّ السّلام المقصود عندهم غالباً لم يكن يعني سوى السّلام بينهم، وأمّا الآخرون فلا سلام لهم ولا أمن، ولذلك لا تتوانى بعض الدّول في أن تشُن حملات استعمارية على الدّول النّامية والإبادة الجماعية لبعض الأقليات المسلمة. وقد توصّل الباحث من خلال دراسته للمبادئ السّابقة إلى الآتي:

أولاً: أسبقية المبادئ الإسلاميّة التي استندت عليها الدّبلوماسية الإسلامية على مبادئ النّظام الوضعي، حيث قرّر الإسلام مبادئه منذُ أربعة عشر قرناً من الزّمان، بينما لم يتم تقنين مبادئ الدبلوماسيّة الوضعية إلا من خلال ميثاق الأمم المتحدة سنة 1945م، وبمقتضى إبرام اتفاقية فيينا 1961م، وظنّوا أنّهم قد سبقوا في وضع المبادئ، بينما أقرّها الإسلام منذ مئات السّنين في صورة واضحةٍ وجلية ليس فيها غموض، كما نجد ذلك أحياناً في القانون الوضعي.

ثانياً: إنّ المبادئ الإسلامية عموماً تتميّز بأنّها مبادئ ثابتة مستقرة لا تخضع للمتغيرات بخلاف المبادئ في النظام الوضعي، فإنّها تتغير مع تغيُّر الأسباب والظّروف ووجود المصالح، وهذا أفقد ذلك النّظام احترامه لدى الدّول والرأي العام العالمي.

ثالثاً: إنّ المبادئ الإسلامية إلزامية للأفراد والجماعات والدّول من المسلمين في معاملة النّاس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأديانهم، بينما يفقد النّظام الوضعي فرض أيّ التزام على أي طرف من الأطراف

198. دورتي، جيمس وروبرت بالستغراف. 1985م. *النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية*. (ترجمة) وليد عبد الحي. الكويت: مكتبة شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع. ص. 69.

الموقعة على الاتفاقيات التي تضمنت تلك المبادئ، فمثلاً مبدأ العدالة لا يعتبره النّظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية مبدأً رسمياً، إلّا إذا طلب جميع الأطراف ذلك صراحة من المحكمة، فإنّها حِينئذ تُصادق على هذا المبدأ، وإلا فلا عدالة ولا إنصاف.

رابعاً: إنّ مبادئ العلاقات الدّبلوماسية في الإسلام تُعبّر عن حقيقته في أنّه دين العدل والسّلام والحرية والوفاء بالعهود والتّسامح، وقد أسهم ذلك كلّه في إقامة علاقاتٍ وثيقة بين الدّول الإسلاميّة وغيرها من الشّعوب.

خامساً: إنّ المسلمين في تاريخهم الطّويل قد طبّقوا هذه المبادئ على خلاف الوضعيين في زماننا الذين لا يطبقون ما يقرّرونه، والتّاريخ يشهد للأوّلين، والواقع يكذب الآخرين.

سادساً: إنّ السّاسة والمفكرين الغربيين الذين وضعوا مبادئ القانون الوضعي، قد تأثروا بمبادئ الدّبلوماسية الإسلاميّة، والشاهد على ذلك أنّ مبادئ القانون الوضعي أتت متشابهة لما أقرّه الإسلام منذ مئات السّنين.

2.2 مفهوم الدّبلوماسيّة وتطوّرها وأنواعها في القانون الدّولي

تطورت الدبلوماسية عبر القرون الماضية، ومع تطورها اختلفت أساليبها ووسائلها باختلاف الحضارات التي مرت سابقاً ولقد مارست الشعوب الدبلوماسية على الصعيدين الداخلي والخارجي لدولها. لذا تعد الدبلوماسية الأداة الرئيسية لتنفيذ السياسة الخارجية للدول ومتابعتها، وقد طبقتها أحدث النظم العصرية التي تقوم على الديمقراطية والتعددية، والحريات العامة والمشاركة السياسية، واحترام حقوق الإنسان. وقد غدت الدبلوماسية بسبب هذه المكانة الهامة التي تتمتع بها على الصعيد الدولي ودورها في تنفيذ السياسة الخارجية لها تدرس في الجامعات والكليات المتخصصة ومعاهد إعداد السلك الدبلوماسي، وهي في الوقت نفسه تعتبر فن

إدارة العلاقات الدولية وتوجيهها عبر الحوار والتفاوض الذي يقوم به موظفو السلك الدبلوماسي من أجل إدارة الأزمات، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية، بالإضافة لما تقوم به الدبلوماسية في الأساس من المشاركة في إعداد السياسة الخارجية من خلال ما تقدمه من معلومات لصناع القرار[199].

وعرفت الإنسانية عبر تاريخها الطويل وسائل عدة لتسوية المنازعات بالطرق السلمية، إذ لم تكن الحرب الوسيلة الوحيدة لفض المنازعات بين الدول والشعوب، على الرغم أن التاريخ يعطينا صورة قاتمة عن الصراعات والحروب التي خاضها الإنسان ضد أخيه الإنسان، إلا أن البشرية والحضارات القديمة وجدت العديد من الوسائل التي سعت من خلالها إلى تفادي الحرب وتسوية الخلافات عن طريق المفاوضات وعقد الاتفاقيات أي بالطرق الدبلوماسية[200].

2.2.1 التّعريف بالدبلوماسية الدولية وأهميتها وتطورها التاريخي في القانون الدولي

2.2.1.1 التّعريف بالدبلوماسية في القانون الدولي

إن مصطلح الدبلوماسية ليس له تعريف محدد ومتفق عليه من قبل الباحثين والمتخصصين في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية، فقد تعددت تعاريف الدبلوماسية منذ بدايتها إلى الآن، نظراً للمراحل التي تطورت عبرها منذ العصور القديمة "المصرية والرومانية واليونانية"، والتي شهدت بدايات التمثيل الدبلوماسي. وتضمنت خلالها سمات الدبلوماسية الحديثة، حيث يتفق المؤرخون على أن الدبلوماسية وإن كانت كمصطلح حديث نسبياً، إلا أنها من حيث المضمون العملي أي الممارسة التطبيقية عُرفت منذ القدم. وأنّ تطور متطلبات الحياة البشرية واستمرار التغيرات في الأنماط والمفاهيم الدولية قد انعكس على مظاهر الدبلوماسية من حيث

199. الرشدان، عبد الفتاح علي ومحمد خليل الموسى. 2005م. *أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. عمان: المركز العلمي للدراسات السياسية.

200 سالم، عز الدين. 2012م. د. ع. *موقع المنظمة العربية للوساطة وحل النزاعات*. http://www.arabmediation.org

كونها فنّاً وعلماً لإدارة العلاقات الخارجية.

إن الدبلوماسية هي فن التعامل مع الآخرين، إذ يتعين أن يتوفر لدى القائم عليها والممارس لها من العناصر الشخصية والموضوعية ما يجعله قادراً على التعامل مع الغير، بمعنى أن تكون لديه من اللباقة والكياسة وحسن التصرف ما يجعله قادراً على مواجهة الآخرين بالإقناع من أجل توخي الخلافات، وتحسين العلاقات، وتعزيز الصداقة والتعاون، وكسب تأييد الغير ودعمه، وقد حاول كل من كتب عن الدبلوماسية وضع تعريف لها على ضوء المهام المتقدمة التي تضطلع بها، فتنوعت بذلك العبارات في ألفاظها وأسلوبها، البعض يتوخى الإسهاب والتفصيل، والبعض الآخر يلتزم الإيجاز والتركيز، وإن كانت كلها لا تختلف في مؤداها ومدلولها.

والدبلوماسية في مظاهرها المختلفة وشكلها التاريخي تهدف أساساً إلى التوفيق بين المصالح المتعارضة، وكذلك خدمة المصالح البشرية الجماعية والفردية، وتجنب التّوتّر، والسعي بالطرق السلمية نحو تسوية الأزمات الدولية، وتحقيق الممارسة الفعلية للدبلوماسية.

اختلف فقهاء القانون الدولي العام، خاصة الذين اهتموا بدراسة العلاقات الدبلوماسية في تحديد معنى الدبلوماسية وقد ذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة وسيشير الباحث إلى بعضٍ منها:

1. من تعريفات أهل القانون للدبلوماسية: أنّها "مجموعة من القواعد والمبادئ الدولية التي تهتم بتنظيم العلاقات القائمة بين الدول والمنظمات الدولية، والأصول الواجب اتباعها في تطبيق أحكام القانون الدولي، والتوفيق بين مصالح الدول المتباينة وفق إجراء المفاوضات والاجتماعات والمؤتمرات الدولية، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات"[201].
2. وعرفها السير هاردلد نيكولسون بأنها "تطلق على رجل السياسة الذي يقوم بمهمة الشؤون الخارجية للدولة وكذلك تطلق على كل طبع أو موهبة أو مهارة أو كياسة في تسيير أمور الأفراد أو الجماعات أو

201. فوق، العادة سموحي. 1979م. *معجم الدبلوماسية والشئون الدولية*. ط. 2. بيروت: مكتبة لبنان. ص. 127.

الدول، وتطلق أحياناً على الدهاء بمفهومه السلبي الذي يتعلق بالمكر والخداع والغموض، فيقال عن من يتصف بهذه الصفات بأنه دبلوماسي[202].

3. وعرفها الإنجليزي هارولد نيكولسون في معجم أكسفورد: "الدبلوماسية هي توجيه العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات والأسلوب الذي به يدير السفراء والمبعوثون هذه العلاقات وعمل الرجل الدبلوماسي أو فنه"[203].

4. وعرفها أرنست ساتو "*Ernest Satow*" بأنها "تطبيق الذكاء وحسن التصرف في توجيه العلاقات الرسمية للدول المستقلة بما في ذلك علاقاتها مع المستعمرات"[204].

5. وعرفها الدكتور سموحي فوق العادة في كتابه "الدبلوماسية والبروتوكول": بأنّها مجموعة القواعد والأعراف الدولية والإجراءات والمراسم والشكليات التي تهتم بتنظيم العلاقات بين أشخاص القانون الدولي؛ أي الدول والمنظمات والممثلين الدبلوماسيين، مع بيان مدى حقوقهم وواجباتهم وشروط ممارستهم مهامهم الرسمية، والأصول التي يترتب على اتباعها تطبيق أحكام القانون الدولي ومبادئه، والتوفيق بين مصالح الدول المتباينة كما هي، وفن إجراء المفاوضات السياسية في المؤتمرات والاجتماعات الدولية وعقد الاتفاقات والمعاهدات[205].

6. وعرّفها عدنان البكري: بأنها "عملية سياسية تستخدمها الدولة في تنفيذ سياستها الخارجية في تعاملها مع الدول والأشخاص الدوليين الآخرين، وإدارة علاقاتها الرسمية بعضها مع بعض ضمن النظام الدولي"[206].

---

202. نيكولسون، هارولد. 1957م. *الدبلوماسية*. (ترجمة) محمد مختار. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية. ص. 44.
203. نيكولسون، هارولد. *الدبلوماسية*. ص. 45.
204. صباريني، غازي حسن. 2002م. *الدبلوماسية المعاصرة: دراسة قانونية*. عمان: الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع. ص. 13.
205. فوق، العادة سموحي. 1979م. *معجم الدبلوماسية والشئون الدولية*. ص. 127.
206. البكري، عدنان. 1985م. *العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. ص. 42.

7. وعرفها فاضل زكي على أنها "علم وفن وتنظيم العلاقات الدولية التي يمارسها المبعوثون والممثّلون الدّبلوماسيّون من خلال المفاوض"[207].

ومما تقدم فإن جميع التعريفات الموجهة للدبلوماسية تشير بأنها فن المفاوضة لإدارة العلاقات الدولية، وإبعاد شبح النزاعات الدولية إن لم تؤدِ إلى القضاء عليها، باعتبار أن النزاعات وتعارض المصالح بين الدول أهم ما يؤثر في تلك العلاقات، ولذا فلابد من إيجاد وسائل تفاهم للقضاء على تلك النزاعات من أجل عالم دبلوماسي سلمي حقيقي.

2.2.1.2 التعريف الاصطلاحي للدبلوماسية في القانون الدولي

اختلف فقهاء وشراح القانون الدولي العام حول تعريف الدبلوماسية في الاصطلاح القانوني، وقد ذهبوا في ذلك إلى مذاهب عدة ترجع أسباب ذلك إلى اختلافهم في التركيز على زاوية أو بعد دون آخر في تحليلاتهم حيث ربط البعض منهم التعريفات بالغرض من إنشاء البعثات الدبلوماسية، ولذلك عرّفوا الدبلوماسية بأنها السياسية الخارجية للدولة، أو هي فن توجيه العلاقات الدولية، أو هي سياسة توجيه علاقات الدول بوسائل سلمية تتفق مع الأخلاق والآداب الدولية، أو هي علم العلاقات الدولية وفق التعامل مع الآخرين، ويقترب البعض من هذا التعريف الأخير، فعرفوا الدبلوماسية بأنها: "علم وفن تمثيل الدول والمفاوضات"[208]، وبذلك يكون هذا التعريف الأخير أوسع من التعريف السابق عليه مباشرة، حيث ضمن كافة صور المفاوضات ضمن التعريف الذي وضعه وتصوره للدبلوماسية، أما البعض الآخر من الفقه فقد ربط بين تعريف الدبلوماسية وبين الأشخاص الذين يمارسون الوظائف الدبلوماسية، وهم أعضاء السلك الدبلوماسي الذين يمثلون الوظيفة التي

207. زكي، محمد فاضل. 1973م. *الدبلوماسية في النظرية والتطبيق*. بغداد: مطبعة شفيق. ص. 140.

208 صابريني، غازي حسن. 2011م. *الدبلوماسية المعاصرة*. ط. 3. عمان: دار الثقافة للنشر والتوزيع. ص. 12.

يؤدّونها حين يقومون بتمثيل دولتهم في الخارج أو خلال مفاوضات تجريها دولتهم مع غيرها من الدول[209]، ولذلك فإن هذا التعريف أشبه بمن فسر الماء بالماء، ولم يأت بشيء يذكر في تعريف الدبلوماسية، أما البعض الآخر فقد مزج في تعريف الدبلوماسية بين التعريفين السابقين الأول والثاني، حيث عرف أنصاره الدبلوماسية بأنّها: "فرع من فروع القانون العام الذي يهتم على وجه الخصوص بتنظيم وتوجيه العلاقات الخارجية للدول، وبشروط تمثيل هذه الدول في الخارج، وإدارة المسائل الدولية وكيفية توجيه المفاوضات[210].

2.2.1.3 الدبلوماسية بمعناها الدقيق

يتمثل عمل الدبلوماسية في أوجه نشاط ثلاثة: مراقبة مجريات الأمور والحوادث، حماية مصالح الدولة، والمفاوضة في كل ما يهمها، وليس هذا بالعمل السهل، فمراقبة كل ما يمس مصالح الدول في علاقتها ببعضها مع السمو على المصالح الخاصة والنزعات الحزبية مهمة واسعة النطاق تقتضي التحرز والحيطة في استقصاء مختلف المعلومات والتثبت من صحتها لتجنب الوقوع في الخطأ أو التعزيز وحماية مصطلح الدولة ومصالح رعاياها تتطلب ملاحظة تنفيذ المعاهدات واتّباع قواعد القانون الدولي كما تتطلب التدخل في الوقت المناسب لمنع الإخلال بالحقوق أو المصالح الشرعية إن أمكن ذلك، أو للمطالبة بالإصلاح والتعويض عند الاقتضاء، وأما المفاوضة فتتناول مختلف الموضوعات لمختلف الأغراض، تارة لتجنب إثارة المنازعات وتارة لتهدئتها، طوراً لتسوية الماضي وطورًا لتدبير المستقبل، كما أنها هي التي تمهد لعقد المعاهدات وإبرام الاتفاقيات التي يتم بها توثيق العلاقات وتدبير الحلول للمشكلات[211].

فالدبلوماسية إذن علم وفن في ذات الوقت، وتكون صفة الفن فيها الغالبة لأنه لا يكون للعلم

209. حمودة، منتصر سعيد. 2008م. *قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. الإسكندرية: دار الفكر الجامعي. ص. 12.
210. حمودة، منتصر سعيد. 2008م. *قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. المرجع السابق. ص. 12-13.
211. أبو هيف، علي صادق. 2015م. *القانون الدولي العام*. الإسكندرية: منشأة المعارف. ص. 11.

قيمة في مجال ممارسته إن لم تكن تصاحبه المواهب اللازمة لحسن الاستفادة، فالدبلوماسية علم يجب تعلم قواعده، وهي فن يتعين الوقوف على أسراره. ومنه فإن اختلاف الفقهاء في القانون الدبلوماسي في تحديد تعريف الدبلوماسية ذهبوا إلى اتجاهات متعددة منها:

1. الدبلوماسية تعني المهنة "السلك ورجاله" أي أن الدبلوماسية تعني الوظيفة الدبلوماسية.
2. الدبلوماسية تعني الدهاء والكياسة: أي قدرة الشخص على أداء مهمته وتمثيل دوره وتحقيق رغباته بالدهاء والحيلة والمرونة في أداء عمله من أجل الوصول إلى الغاية التي يهدف إليها.
3. الدبلوماسية تعني فن المفاوضة، وذلك عن طريق ممثلين دبلوماسيين معتمدين لفض النزاعات بين الدول بهذه الوسيلة.
4. الدبلوماسية تعني فن تمثيل الدول أي إجراء المفاوضات عن طريق ممثلين معتمدين لهذا الغرض.
5. الدبلوماسية تعني السياسة الخارجية للدولة، أي السياسة المهيمنة على سياسة الدولة الخارجية كسياسة الحياد أو عدم الانحياز والحرب، والمحافظة على سياسة التوازن الدولي[212].

2.2.2 أهمية الدبلوماسية وعلاقتها بالقانون الدّولي

2.2.2.1 أهمّية الدبلوماسية واستقلاليتها في القانون الدولي

إن المجتمعات البشرية القديمة كانت في حاجة إلى التعاون فيما بينها؛ لأنها أحسّت أن مصالحها وتعزيز وجودها متوقف على علاقات متميزة بعضها ببعض، حيث تستطيع بواسطتها تأمين حاجاتها بالتبادل أو المقايضة، وبهذه العلاقات حاولت هذه المجتمعات البسيطة سواءً كانت قبائل أو عشائر أو شعوباً أو دولاً سياسية أن تحل بعض أزماتها ومشاكلها عن طريق التوافق بين المصالح، وبتطور الحياة وتشابك المصالح الدولية

212. الفتلاوي، سهيل حسين. 2007م. *القانون الدولي العام*. ج. 2. عمان: دار الثقافة. ص. 222.

أصبحت الحاجة ملحّة لإقامة علاقات بين الدول من أجل التوافق بين مصالحها، وحل إشكاليات التضارب بين هذه المصالح، وتسوية الخلافات والمنازعات، وإيجاد الحلول الملائمة لها، وعن طريق الدبلوماسية تستطيع كل دولة أن توطد مركزها وتعزز نفوذها في مواجهة الدول الأخرى، وبطبيعة الحال هذا يقتضي فن التفاوض بين الدول، وعقد اتفاقيات ومعاهدات سواء كانت ثنائية بين دولتين أو أكثر، لتنظيم العلاقات الدولية وفق قواعد القانون الدولي العام، وحلّ أزمات ومشاكل الدول على ضوء القواعد الدولية، وإيجاد الحلول الملائمة فيما إذا تضاربت مصالح هذه الدول أو تعارضت، وتلك هي مهمة "الدبلوماسية".

فالدبلوماسية هي إذاً بالنسبة للمجتمع الدولي بمثابة القوى المحركة للحياة الدولية ومبعث نشاطها، وهي بالنسبة لكل دولة بمثابة الأداة التي تمكنها – لو أحسن استخدامها – من الحصول على كل المزايا التي تسعى إليها لتتبوّأ المركز اللائق بها في هذا المجتمع[213]، وعند مقارنة كلمة الدبلوماسية في اللغة والإسلام والقانون الدولي العام نجد أن لهذه الكلمة معاني مختلفة وذات أغراض متعددة، وهي تختلف في استعمالها في كل من اللغة والاصطلاح والقانون الدولي العام.

ففي اللغة كان العرب يستخدمون مصطلح كتاب للدلالة على الوثيقة التي يتبادلها أصحاب السلطة، ومصطلح الرسول بمعنى السفير، والرسول في اللغة مأخوذة من الإرسال وهو الإرسال والتسليط والإطلاق والتوجيه، وكان في معنى الرسول أنه يطلق إلى آخر ويوجه إليه ويسلطه عليه، والرسول في الدين له معنى، والرسول عند الفقهاء له دلالة، والرسول بين الملوك له مفهوم...إلخ، على أن هذه المعاني تشترك في صفة واحدة هي صفة الإطلاق والتوجيه ونقل الأخبار، وتختلف في طبيعة العمل الذي يقوم به كل رسول[214]، وتتنوع وجهات نظر فقهاء القانون الدولي في تعريف الدبلوماسية، فمنهم من يعرفها بشكل محدد، ومنهم من عرفها

213. أبو هيف، علي صادق. 2015م. *القانون الدولي العام*. ص. 9.

214 الحفيظ، عماد محمد ذياب. 2019م. *تاريخ الدبلوماسية العربية ومفاهيمها الإسلامية*. عمان: دار الرضوان. ص. 219.

بشكل أكثر تعميماً. فيرى البعض أن الدبلوماسية هي: عملية سياسية تستخدمها الدولة في تنفيذ سياستها الخارجية، في تعاملها، وإدارة علاقاتها الرسمية مع الدول، وأشخاص القانون الدول ضمن النظام الدولي[215] ومنهم من عرفها بعلم وفن المفاوضات، فهي علم، وهي فن؛ لأنها مهنة دقيقة تحتاج إلى مهارات خاصة[216]، ويرى آخرون أنها رعاية المصالح الوطنية في السلم والحرب، وممارسة القانون الدولي العام[217].

وعرف سموحي فوق العادة الدبلوماسية بمعناها العام الحديث والذي يتماشى مع مفهوم القانون الدولي على النحو التالي: "هي مجموعة القواعد والأعراف الدولية والإجراءات والمراسم والشكليات التي تهتم بتنظيم العلاقات بين أشخاص القانون الدولي؛ أي الدول والمنظمات والممثلين الدبلوماسيين، مع بيان مدى حقوقهم وواجباتهم وشروط ممارستهم مهامهم الرسمية، والأصول التي يترتب على اتباعها تطبيق أحكام القانون الدولي ومبادئه، والتوفيق بين المصالح الدولية المتباينة كما هي، وفن إجراء المفاوضات السياسية في المؤتمرات والاجتماعات الدولية وعقد الاتفاقات والمعاهدات"[218].

يرى الباحث وجاهة هذا التعريف فهو أكثر دقة وشمولاً لكونه احتوى على كل أشخاص القانون الدولي، سواء كانت دولاً أو منظمات دولية، كما تضمن الهدف من الدبلوماسية والغاية منها، وهي تحسين العلاقات الودية والسلمية بين أشخاص المجتمع الدولي، وإزالة التعارض بين مصالح الدول، كما أن هذا التعريف استند إلى الفقه الدولي الذي يعتبر أن الدبلوماسية هي علم وفن في وقت واحد، حيث إنّها علم العلاقات الدولية، وفن الدبلوماسي في إدارة الأزمات الدولية المختلفة.

---

215. البكري، عدنان. 1985م. *العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. ص. 38.
216. الشامي، علي حسين. 2011م. *الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية*. ص. 39.
217. صابريني، غازي حسن. 2011م. *الدبلوماسية المعاصرة*. ص. 12.
218. سموحي، فوق العادة. 1973م. *الدبلوماسية الحديثة*. دمشق: دار اليقظة العربية. ص. 3.

2.2.2.2 العلاقة بين الدبلوماسية والقانون الدولي

لعل من الأخطاء الشائعة التي تعبر عن قدر كبير من قصور النظر، الاعتقاد بأن العلاقة بين الدبلوماسية والقانون الدولي، تكمن فحسب في المسائل المتعلقة بالحصانات والمزايا الدبلوماسية، أو بجوانب العمل القنصلي التي يغلب عليها الطابع القانوني. وإذا كان من الصحيح أن تلك المسائل تبدو بمثابة الجزر القانونية الواضحة الهوية والمعالم في خضم الدبلوماسية الواسع، فإن ذلك الخضم تتلاطم فيه أمواج وتيارات متعددة، وتختلط فيه الاعتبارات القانونية الدولية بغيرها من الاعتبارات والعوامل، وفي مقدمتها بطبيعة الحال الاعتبارات السياسية. ويمكن القول إن المبادئ والأصول القانونية الدولية تعتبر في الوقت الراهن واحدة من التيارات الرئيسية التي يتشكل منها العمل الدبلوماسي، شأنها في ذلك شأن الاعتبارات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية وغيرها، وأن موقعها في الترتيب بين الاعتبارات قد يختلف من دولة إلى أخرى، ولكنه يظل في جميع الأحوال عنصراً من العناصر الفاعلة والمؤثرة على تيار الدبلوماسية بوجه عام.

ولكي يتم التعرف على موقع القانون الدولي في إطار الدبلوماسية يجب أن نحدد بدقة موقع القانون الدولي من المجتمع الدولي بوجه عام، بحيث يكون ذلك مقدمة لتحديد موقع القانون الدولي من الدبلوماسية في الوقت الحاضر.

1. القانون الدبلوماسي جزء من القانون الدولي: كانت العلاقات الدبلوماسية، ومازالت مصدراً خصباً من مصادر القانون الدولي، العرفي والاتفاقي، فالقواعد العرفية والعادات الدبلوماسية قد كونت جانباً هاماً من القانون الدولي، وهو ما نطلق عليه عبارة القانون الدبلوماسي وبمعنى آخر أصبح مجموعة قواعد القانون الدولي التي تنظم الدبلوماسية[219].

2. الدبلوماسية أساس القانون الدولي: القانون الدبلوماسي هو الذي يشمل دراسة وسائل وإجراءات تأسيس

219. أبو هيف، علي صادق. 2015م. *القانون الدولي العام*. ص. 21.

العلاقات الودية بين الحكومات وأساليب المفاوضات وقواعدها، والممثلين الدبلوماسيين وطرق تعيينهم، وما يشترط فيهم من مؤهلات، ودرجات وترتيب أعمارهم، وبدء وانتهاء مهمتهم، وحقوقهم وواجباتهم، وحصاناتهم وامتيازاتهم. ومسائل الاحتفالات والمراسم ونظم عقد المؤتمرات، وهذه كلها قواعد عرفية حكمها العمل والممارسة الدولية ومبدأ المعاملة بالمثل، واستمدت قوتها من المعاملات القديمة والتواتر المطرد دون أن تكون نصوصاً مكتوبة متفقاً عليها دولياً، إلا فيما لحق بعضها من الأحكام الفردية التي توجد في معاهدات الصداقة والإقامة التي تعقد بين دولتين أو أكثر، كما هو حال لائحة فيينا سنة 1815م وبروتوكول إكس لاشابيل سنة 1818م بشأن ترتيب درجات وأسبقية الممثلين الدبلوماسيين. وكذلك اتفاقية هافانا سنة 1928م بشأن حصاناتهم وامتيازاتهم[220].

ومما سبق يتضح لنا أن العلاقات والعادات الدبلوماسية كانت مصدراً نافعاً في تشكيل القانون الدولي العرفي، فنبهت أذهان الباحثين والفقهاء إلى أن هناك مجموعة من المبادئ التي تعارف الناس على التعامل بمقتضاها والتي تشكل قانوناً للأمم، وقد لعبت الوظيفة الدبلوماسية دورها في تشكيل وتكوين القانون الدولي العرفي، وذلك منذ أن ظهرت الدبلوماسية باعتبارها وسيلة للتفاوض في عقد المعاهدات الدولية التي لا تحصى، من شفوية أو مكتوبة[221]، ولكن على الرغم من المجهودات المتواصلة لتقدم تقنين القانون الدولي وخاصة قواعد الدبلوماسية، فإن الخاصية المميزة لها هي أنها مازالت نظاماً أو ضوابط عرفية، وأن ما هو مكتوب ومدون منها مازال محدوداً، والمثال على ذلك ممّا له علاقة بالحياة العمليّة اليوميّة: العلاقات الدّبلوماسيّة بين الدّول، وهو ما يجري عليه العمل من حق وزراء الخارجية في الاتصال بممثلي الدول الأجنبية المعتمدين لدى رؤساء الدول أو لديهم بحث قضايا معينة معهم تهم البلدين، ويمكن القول أن العلاقة بين الدبلوماسية والقانون الدولي هي علاقة

220. لائحة فيينا. 1815م. بروتوكول إكس لاشابيل. 1818م نصوص تعاملت مع موضوع تنظيم السلك الدبلوماسي بموجب اتفاق فيينا 1815م.

221. فوده، عز الدين. 1971م. *ما الدبلوماسية*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. ص. 21.

وثيقة ومتداخلة يحكمها محوران[222]:

1. إن العلاقات الدبلوماسية قد لعبت دورهما في تشكيل القانون الدولي بمصدريه العرفي والاتفاقي.
2. القواعد القانونية التي تتعلق بالدبلوماسية وتنظم عملها جزء من القانون الدولي، وهو ما نسميه بالقانون الدبلوماسي.

2.2.3 التطور التاريخي للدّبلوماسيّة الدولية في القانون الدولي

2.2.3.1 الفرع الأول: الدبلوماسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

ساهم انهيار نظام الإقطاع في أوروبا وظهور دولها الحديثة في استقرار القواعد الدبلوماسية، فأسهم جروسيوس بما أعلنه عن وجود قانون طبيعي يكمن في الضمائر، ويوصي بالحكمة في التصرف، ويعلو على إرادات الملوك والحكام، كما دعا إلى تشكيل جهاز خاص يتولى تطبيق أحكام هذا القانون.

وجاء بعد ذلك الكاردينال الفرنسي ريشيليو "1585 - 1642م"، ليثري الفكر الدبلوماسي بتركيز الاهتمام على المصالح العليا للدولة دون غيرها. وقد شهدت هذه الحقبة انتهاء حرب الثلاثين عاماً، وعقد اتفاقية وستفاليا سنة 1648م بين الدول الأوروبية، وإنشاء الحلف الأوروبي الذي تقيدت دوله بمراعاة سياسة توازن القوى فيما بينها، وعدم السماح لإحداها الإخلال بهذا التوازن.

ولقد وجد مبدأ تبادل التّمثيل الدائم في تلك الحقبة – خلافاً للمرحلة السابقة – معارضة من بريطانيا التي صمم ملكها هنري السابع على إلغاء الأخذ بهذا النظام، كما لجأت بولندا إلى طرد جميع السفراء المقيمين على إقليمها متهمة إياهم بالتجسس[223]. وعندما احتاجت أوروبا لأسواق الشرق – في عصر النهضة الصناعية – لتصريف منتجاتها، اتجهت لإقامة تمثيلها الدائم هناك. أما هولندا فقد وضعت خلال القرن السابع عشر

222. League of Nations. 1929. *Official Journal, 5th year, No. 10, October 1924*. p. 1346.
223. Sen, B. 1988. *A Diplomat's Handbook of International Law and Practice*. 3rd edition. Dordrecht/Boston/London: Martinus Nijhoff Publishers.

نظاماً لحماية السفراء، كما قامت بريطانيا خلال القرن الثامن عشر بإصدار قانون يسمح بمعاملة السفراء بنفس المعاملة التي يحظى بها شعبها.

2.2.3.2 الفرع الثاني: الدبلوماسية في القرن التاسع عشر

ظلت الدبلوماسية متربعة في هذا القرن على عرش الدبلوماسية بمبادئها وأسلوبها ولغتها، كما كانت الدول الأوروبية تسيطر في هذا القرن على أمور الدول الصغرى في آسيا وأفريقيا، وكان ينفذ سياستها دبلوماسيون محترفون من ذوي النفوذ والجاه، وخلال فترة الصراع والتنافس الذي كان يسود علاقات الدول الأوروبية في ذلك الوقت، والذي كان ينعكس على سفرائها في الخارج، فإنهم كانوا يتنافسون على الجلوس في أماكن الشرف دون ضابط أو ترتيب يحكم أوضاعهم، ممّا اضطرّت هذه الدول إلى عقد اتفاقية فيينا سنة 1815م لترتيب أسبقيات رؤساء البعثات الدبلوماسية على النحو التالي:

1. السفراء والقاصدون الرسوليون.
2. المبعوثون والوزراء ونواب القاصدين الرسوليّين.
3. القائمون بالأعمال[224].

2.2.3.3 الفرع الثالث: الدبلوماسية الحديثة "القرن العشرون"

شهدت الدبلوماسية في بداية القرن العشرين تطوراً هائلاً بظهور الديمقراطية التي دانت بها كثير من الدول الأوروبية، وببزوغ الولايات المتحدة الأمريكية – كقوة واعدة – لترسيخ النهج الديمقراطي وبالتقدم الهائل في وسائل المواصلات والاتصالات؛ إلا أن بداية هذا القرن تعرض لاختبار عسير بقيام الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، التي شهدت انقسام العالم إلى دول المحور والحلفاء، وشيوع نظام الاستقطاب الدولي، وانتعاش

224. كامل، محمد ثائر. 2000م. *الدبلوماسية المعاصرة وإستراتيجية إدارة المفاوضات*. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع. ص. 4.

دبلوماسية الحرب، وانتشار مؤتمرات الصلح التي كانت فرصة لقيام الدول الكبرى، باقتسام الغنائم في الدول المنكسرة، وقد ساعد على إثراء الدبلوماسية في تلك الفترة نشوء عصبة الأمم، واتجاه الدول إلى العمل بالدبلوماسية المتعددة الأطراف، وكذلك عقد معاهدة هافانا سنة 1928م بين الدول الأمريكية التي قننت الكثير من قواعد العرف الدبلوماسي، فكانت الأساس لما أخذت به اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لسنة1961م[225].

2.2.3.4 الفرع الرابع: الدبلوماسية المعاصرة "بعد الحرب الثانية"

اتجهت الدول المنتصرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى البحث عن آلية تتقي بها شر الحروب وبواعث الخراب والتدمير، فعقد زعماء الدول الكبرى العديد من المؤتمرات للبحث عن نموذج لهذه الآلية، ولقد تمخضت جهودهم المتواصلة بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية عن فكرة إنشاء منظمة الأمم المتحدة، فاجتمعت وفود الدول عام 1945م في سان فرانسيسكو، واتفقت على وضع ميثاق ينص على عدة مبادئ، ركزت على الدبلوماسية العلنية، ونبذ عقد المعاهدات السرية، وإقرار حق الشعوب؛ حق الشعوب في تقرير مصيرها وحل المشاكل بين الدول بالمفاوضة وبالطرق السلمية وإقرار مبدأ المساواة بين الدول كبيرها وصغيرها، وتم بذلك وضع الأساس المكتوب للقواعد الدبلوماسية المعاصرة، كما شهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، انقسام العالم إلى معسكر رأسمال، تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية؛ ويشمل دول غرب أوروبا ومعسكر شرقي، يرأسه الاتحاد السوفيتي السابق. وغلبت على المعسكرين سياسة الحرب الباردة وسباق التسلح والتنازع على مناطق النفوذ في العالم، وكان لكلا المعسكرين إيديولوجيته ونهجه السياسي والدبلوماسي المتعارض، وقد نقلت خلافات المعسكرين إلى أروقة منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة، وانعكست في المحافل الدولية الأخرى، ونشأت

225. Sen, B. 1988. *A Diplomat's Handbook of International Law and Practice*. p. 22.

– بظهور منظمة الأمم المتحدة – الدبلوماسية متعددة الأطراف، وذلك إلى جوار الدبلوماسية الثنائية التي كانت سائدة من عدة قرون، واقترن ذلك بظهور نماذج عديدة من الدبلوماسية؛ مثل دبلوماسية المؤتمرات والمنظمات الدولية، والدبلوماسية المفتوحة، والدبلوماسية الشعبية[226].

2.2.3.5 الفرع الخامس: الدبلوماسية في اتفاقية فيينا لسنة 1961م

اتفقت الدول على عقد مؤتمر دولي في فيينا سنة 1961م لعقد اتفاقية للعلاقات الدبلوماسية، يتم بها تقنين القواعد العرفية والقانونية التي تجمعت كحصاد، وتواتر عليها العمل منذ سنين. ولقد راعى المؤتمر ما أدخلته اتفاقية فيينا لسنة 1815م من قواعد، وما أتت به اتفاقية هافانا سنة 1928م من أحكام، علاوة على الجهود الفقهية المختلفة في هذا الشأن، ولقد توصل هذا المؤتمر إلى عقد اتفاقية شاملة جمعت شتات هذه القواعد وتم توقيعها، وسميت اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لسنة 1961م، وتعالج هذه الاتفاقية العلاقات الدبلوماسية بين الدول، وكيفية إنشاء البعثات الدبلوماسية وتعيين أعضائها، ونقلهم وحصاناتهم وواجباتهم. وهي الاتفاقية التي تعتبر الأساس الذي تقوم عليه قواعد القانون الدبلوماسي باعتباره فرعاً للقانون العام؛ يتناول عملية الاتصال الخارجي بين الدول، ويعتبر العرف أساساً لهذا القانون باعتباره أحد فروع القانون العام، الذي يوصف بأنه القانون الموضوعي للعلاقات الخارجية، بينما يوصف القانون الدبلوماسي بأنه قانون الإجراءات الخاصة بالقانون العام[227].

من خلال ذلك تبين أن كل عصر من العصور السالفة الذكر قد أعطى مساحة متسعة للدبلوماسية في أثناء هذا العصر، حيث إنّ كل عصر أفرد مساحة للتعامل بهذه الدبلوماسية إلا أن طريقة التعامل تختلف من

226. سلامة، عبد القادر. 1997م. *التمثيل الدبلوماسي والقنصلي المعاصر والدبلوماسية في الاسلام مع التركيز على النظام الدبلوماسي والقنصلي المصري* والسعودي. القاهرة: دار النهضة العربية. ص. 23.

227. Pradier-Fodéré, P. 2014. *Cours de Droit Diplomatique: À L'usage des Agents Politiques du Ministère des Affaires Étrangères des États Européens et Américains*. Charleston: Nabu Press. p. 4.

عصر إلى عصر، ومهما يكن من التعامل بهذه الدبلوماسية في العصور المختلفة يظل العصر الإسلامي هو الأرقى في التعامل الدبلوماسي، حيث حققت الدبلوماسية الإسلامية بقيادة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إنجازات ضخمة تضاف إلى سجلها الراقي، لأن تعاملها كله أمانة وصدق ووفاء بالعهد والحرص على مصلحة هذه الأمة.

2.2.4 أنواع الدبلوماسية الدولية من حيث عدد الأطراف المشاركة فيها "متعددة الأطراف" في القانون الدولي

تبدو الدبلوماسية من حيث عدد الأطراف المشاركة فيها على إحدى صورتين فهي إما أن تكون ثنائية أي أن تتم بين دولتين فقط، وأما أن تكون متعددة الأطراف وتجري بين أكثر من دولتين، فلنتعرف على هاتين الصورتين بشيء من التفصيل:

2.2.4.1 أولاً: الدبلوماسية الثنائية

إذا أخذنا بعين الاعتبار المتغيرات المتعلقة بالعلاقات الدبلوماسية سواء في العصور القديمة أو الوسطى ليس فقط من حيث محدودية الحاجات وانعكاساتها على مصالح الدول، وتحركاتها إزاء بعضها البعض، وما قد ينجم عن ذلك من مشاكل دولية، وإنما أيضاً من حيث طبيعة أدوات الاتصال وتأثيرها على تلك التحركات يمكننا أن نقول أن الاحتكاك بين الشعوب وما يرتبط به من مشاكل هو بصفة عامة أو في أغلب الأحيان ذو طابع ثنائي، ولهذا يفترض أكثر من باحث أن ظهور الدبلوماسية جاء في أعقاب حدوث صدام مسلح بين قبيلتين متجاورتين، أي بعد أن بات واضحاً لكلتيهما أنه لابد أن تجريا فيما بينهما مفاوضات لصلح، أو لهدنة، أو لنقل الجرحى، أو دفن القتلى، فكان رسل القبيلتين يتفاوضون في واحدة من هذه المسائل، ولم يتغير هذا الوضع بصفة عامة بعد إنشاء الدول سواء في بلاد الشرق القديم أو في أوروبا[228]، وظلت العلاقات بين

228. حنيد، عبد المنعم. 1975م. *دراسات في القانون الدبلوماسي*. القاهرة: مطابع سجل العرب. ص. 13.

الشعوب فاترة ومتقطعة، واستمرت الحرب كاتجاه سائد يهيمن على العلاقات الدبلوماسية، والملاحظ أن كثيراً من المعاهدات والاتفاقيات الدولية عُقدت في مختلف العصور بصورة ثنائية، ولا تزال الدبلوماسية الثنائية تشكل ركيزة أساسية في التعامل الدولي وذلك لاعتبارات عديدة أهمها:

1. تحرير الدولة بدرجة كبيرة في تحديد أهدافها ومصالحها من تلك القيود التي تفرضها الارتباطات الدولية.
2. سرعة وسهولة إجراء الاتصالات الثنائية مقارنة بتلك التي تجري بين أطراف متعددة أو في إطار الدبلوماسية البرلمانية، إذ تقترن بالثانية والأخيرة ضوابط عديدة تجعلها لا تتلاءَم مع مقتضيات الموقف السياسي أو المشكلة موضوع البحث.
3. أنها تستخدم في بعض الأحيان للتمهيد للدبلوماسية متعددة الأطراف[229].

2.2.4.2 ثانياً: الدبلوماسية متعددة الأطراف

لا نستطيع القول بأن هذه الدبلوماسية تمثل صورة جديدة في التعامل الدولي، وتكون متعددة الأطراف: كلما تكونت مصالح مشتركة بين عدد من الدول، ومن الأمثلة على ذلك الاتصالات التي كانت تجري بين بعض الدول في بلاد ما بين النهرين والمدن التابعة لها، ولم تبدأ ملامح هذه الدبلوماسية في الظهور إلا في العصور الحديثة مع انعقاد مؤتمر وستفاليا عام 1648م[230]، ومؤتمر أوترخت عام 1713م وما تمخض من نتائج. فقد جمع مؤتمر وستفاليا عدداً كبيراً من الدول الأوروبية، وأسفر عن إنجاز دبلوماسي هام، حيث وضع حداً لحروب الثلاثين عاماً التي خاضتها بعض الدول الأوروبية بهدف التوسع، بينما وقف البعض الآخر في وجهها وازداد العمل بالدبلوماسية متعددة الأطراف بظهور الأحلاف العسكرية كحلف الأطلسي عام 1949م، وحلف وارسو عام 1954م، وبظهور المنظمات الإقليمية كجامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة

229. زهرة، عطا محمد صالح. 2004م. *في النظرية الدبلوماسية*. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع. ص. 94.
230. فتح الباب، حسن. 1976م. *المنازعات الدولية ودور الأمم المتحدة في حل المشكلات المعاصرة*. القاهرة: عالم الكتب. ص. 25.

الأفريقية، والمجموعات الدولية مثل مجموعة دول عدم الانحياز، والمؤتمر الإسلامي، وقد أضحت الدبلوماسية متعددة الأطراف أو دبلوماسية المؤتمرات ظاهرة مألوفة ويرجع بروزها إلى عدة عوامل أهمها:[231]

1. تقدم وسائل الاتصال على نحو يسمح لممثلي الدول المعنية بالوصول إلى مقر انعقاد المؤتمر بسرعة وسهولة.
2. تزايد الاتصال بين الشعوب من منطلق الإحساس بوجود مصالح مشتركة فيما بينها.
3. تزايد المشكلات الدولية بتفاوت مصالح الشعوب، وطرق تفكيرها، وأساليب عملها، واختلاف موازين القوى الدولية. ولقد أثبتت هذه الدبلوماسية أنها قادرة على أن تلعب دوراً هاماً في العلاقات الدولية سواء في تنمية التعاون الدولي أو في تعزيز القدرة العسكرية وتحقيق التوازن الدولي[232].

2.2.5 أنواع الدبلوماسية الدولية من حيث عدد الجهات التي تمارسها والسرعة والشكل الذي تتخذه في القانون الدولي:

هناك ثلاث جهات تمارس العمل الدبلوماسي ولذلك يمكن الحديث عن ثلاثة أنواع للدبلوماسية وفقاً لهذا المعيار: دبلوماسية المبعوثين، ودبلوماسية القمة، والدبلوماسية الشعبية، ولكل نوع من هذه الأنواع خصائصه المتميزة نتعرف عليه على النحو التالي:

231. الجاسور، ناظم عبد الواحد. 2001م. *أسس وقواعد العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. عمان: دار مجدلاوي. ص. 43.
232. فتح الباب، حسن. 1976م. *المنازعات الدولية ودور الأمم المتحدة في حل المشكلات المعاصرة*. ص. 52.

2.2.5.1 الفرع الأول: أنواع الدبلوماسية من حيث عدد الجهات التي تمارسها والسرعة والشكل الذي تتخذه في القانون الدولي

2.2.5.1.1 أولاً: دبلوماسية المبعوثين ويقصد بها تلك الدبلوماسية التي تتم من خلال المبعوثين أو لممثلين الدبلوماسيين، وتمتد جذورها إلى ما قبل التاريخ عندما كان بعض الأشخاص يوفدون في مهام محددة كممثلين شخصيين لرؤساء قبائلهم وذلك لمعالجة بعض القضايا أو المشاكل، فنظراً لتعذر الاتصال المباشر بين رؤساء القبائل أحياناً برزت الحاجة إلى إرسال الممثلين الدبلوماسيين إلى بعضهم البعض[233].

واستمر العمل الدبلوماسي على هذا النحو طيلة فترة الحكم الملكي المطلق، فالسفراء يُختارون من قبل الملوك من بين كبار التجار أو رجال القضاء، أما مساعدوهم فهم موظفون شخصيون يدفعون لهم – أي السفراء أجورهم ويظل ارتباطهم بهم قائماً حتى تنتهي المهمة الدبلوماسية، ولم يتبدل هذا الوضع مع ظهور النظم الديمقراطية، وكان المبعوثون الدبلوماسيون في مستوى واحد، يحملون لقب سفراء أو نواب[234].

2.2.5.1.2 ثانياً: دبلوماسية القمة

ويقصد بها النشاطات الدبلوماسية التي يقوم بها رؤساء الدول أثناء الاجتماعات التي يعقدونها فيما بينهم، حيث يتفاوضون حول قضايا خاصة تهم بلدانهم أو يبحثون مسائل عامة تتعلق بالسلام العالمي والتعاون الدولي[235].

وتشير الشواهد التاريخية إلى أن الأمراء والملوك كانوا قديماً يلتقون أحياناً لبحث الموضوعات التي تهمهم،

233. عبد المجيد، احمد. 1969م. *أضواء على الدبلوماسية*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ص. 11-12.
234. زهرة، عطا محمد صالح. 2004م. *في النظرية الدبلوماسية*. ص. 100.
235. المرجع نفسه. ص. 101.

ولكنها لقاءات محدودة ومتقطعة، ولم تصبح هذه اللقاءات ظاهرة مألوفة إلا منذ الحرب العالمية الثانية، ويعتبر البعض أن إقدام رؤساء الدول أو رجال السياسة عموماً على ممارسة الدبلوماسية بتوليهم شخصياً المفاوضات مع قادة الدول الأخرى أو اشتراكهم فيها هو من نتائج الأخذ بالنظم الديمقراطية، ويرى أحد الباحثين أن مؤتمرات القمة هي دليل على تصاعد العمل الدبلوماسي ليصيح شأناً من شؤون رؤساء الدول يشاركهم في ذلك وزراء الخارجية[236]، ويرجع بروز دبلوماسية القمة إلى طبيعة بعض القضايا والمشكلات الدولية من حيث تعقدها وصعوبة حلها، فجهود الممثلين الدبلوماسيين بحكم تشابك العلاقات الدولية، ومحدودية الصلاحيات الممنوحة لهم، تظل دون مستوى القدرة على تحقيق تقدم ملموس في حل المشكلات المستعصية، الأمر الذي يتطلب قيام رؤساء الدول بهذه المهمة[237]. وتبدو جدوى هذا النوع من المؤتمرات في الجوانب التالية:

1. توثيق الروابط بين رؤساء الدول المعنية.
2. حسم المشكلات التي لا يستطيع السفراء عادةً حسمها.
3. تحقيق السرعة المطلوبة في حسم المشكلات العاجلة وفقاً لما تقتضيه ظروف العصر الذي نعيش فيه وهو عصر الذرة.
4. إن هذه المؤتمرات قد تكون نقطة الانطلاق في البدء في مفاوضات حول قضية ما، وقد تكون خاتمة لها. ومن عيوب مؤتمرات القمة أنها:[238]

أ. قد لا تسفر عن شيء فكثير من مؤتمرات القمة ومنها العديد من القمم العربية فشلت في تحقيق الأهداف التي عقدت من أجلها.

ب. قد تؤدي إذا لم تسفر عن نتائج إيجابية إلى خلق حالة من التشاؤم لدى الرأي العام، ولتلافي مثل

236. أبو هيف، علي صادق. 1975م. *القانون الدبلوماسي*. الإسكندرية: منشأة المعارف. ص. 24.
237. أودنيس، العكرة. 1981م. *من الدبلوماسية إلى الاستراتيجية*. بيروت: دار الطليعة. ص. 38-39.
238. التابعي، محمد. 1969م. "التطور المعاصر للدبلوماسية". *المجلة المصرية للقانون الدولي*. ج. 25. ص. 143.

هذه الحالة يظهر الميل إلى إخفاء الفشل والتمويه على الرأي العام العالمي أو المحلي.

ج. تتخذ مؤتمرات القمة في بعض الأحيان وسيلة للدعاية، وفي حالة الفشل يلقي كل طرف اللوم على الآخر ويحمله مسؤولية ذلك كما حدث في نهاية اجتماع خرتشوف وكنيدي[239].

من خلال ما سبق يتبيّن أن دبلوماسية القمة تأتي دائماً في ظروف صعبة تدعو الرؤساء والملوك للالتقاء لبحث هذه المشاكل أو الأوضاع المتردية، والبحث عن وجود حل لها، ومثال ذلك اجتماعات القمة العربية إلا أن هذه الاجتماعات لم تحقق أي نجاحات أو حل لموضوع مطروح أمامها مهما كان، وأقرب مثال لذلك هو اجتماعات القمم العربية في ظلّ الأحداث العالمية الأخيرة، حتى إنّها لم تحقق أي نجاح وظل الفشل ملازماً لها طوال الفترة الماضية.

2.2.5.1.3 ثالثاً: الدبلوماسية الشعبية

وهي تلك النشاطات الدبلوماسية التي تتجه إلى مخاطبة الجماهير الشعبية بوسائل شعبية لإيجاد علاقات مباشرة بين الشعوب، وكسب تأييدها، وقد ساعد على ظهور الدبلوماسية الشعبية التقدم العلمي والتكنولوجي في وسائل الاتصال المختلفة، حيث أوجدت فرصاً جديدة للاتصال الجماهيري.

يقول فاضل زكي في هذا الخصوص " أن الدبلوماسية الشعبية هي صورة التحول الذي طرأ على الدبلوماسية في القرن العشرين، والذي نجم عن التقدم العلمي والتكنولوجي في وسائل الاتصالات المختلفة، إنها أيضاً ومن زاوية أخرى صورة من صور الدبلوماسية العلنية التي تتصل بالجماهير الشعبية، وتعلن لها أعمالها، وما توصلت إليه من نتائج. إنّ الاتصال بالشعب إذن قد أعطى للدبلوماسية اسم الدبلوماسية الشعبية وليس هذا فحسب، بل هناك رأي عامّ شعبيّ تسعى الدبلوماسية لكسبه وتأييده.

239. التابعي، محمد. 1969م. "التطور المعاصر للدبلوماسية". *المجلة المصرية للقانون الدولي*. ج. 25. ص. 143.

فالدبلوماسية في صورتها الشعبية تخاطب الشعب، وتتصل به عن طريق الوسائل الحديثة التي تجعل من المخاطبة والمواجهة أمراً ممكناً، وهذا التحول الذي فرضته ظروف وأحوال العصر لم يجعل من الدبلوماسية شعبية في أهدافها، وإنما جعل منها أن تكون شعبية في وسائلها أيضاً، ذلك أن الدبلوماسية التي تضع لها مخاطبة جماهير الشعب، وتأييد آرائهم هدفاً، قد فتحت أبوابها لأبناء الشعب قاطبة. إذ إنّ الدبلوماسية الشعبية لا تستطيع أن تنجح إلا بدبلوماسيين شعبيين يأتون من عموم الشعب، يفهمون لغته، ويحسون بأحاسيسه، ويعملون من أجل خدمته[240]. وتعتمد الدبلوماسية الشعبية على وسائل عديدة أهمها:

1. الإذاعة المرئية والمسموعة والصحافة.
2. الاتحادات والروابط كالاتحادات النسائية، وجماعات أنصار السلام، واتحادات الأدباء والفنانين، والاتحادات العمالية والطلابية، والروابط المهنية الأخرى، فكلها تنظيمات شعبية تمتلك القدرة على التحرك والاتصال بالجماهير، ومن فوق منابرهم يتم التفاهم والاتصال الشعبي.
3. المبعثون إلى الخارج بشتى أشكالهم، وألوان ثقافتهم، كرجال العلم والدين فهم يشكلون أدوات غير رسمية للدعاية لبلادهم، يتحدثون عنها ويرفعون من مكانتها من خلال قيامهم بأعمالهم العلمية أو الدينية.
4. خبراء المنظمات الدولية كالأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة من الاقتصاديين والاجتماعيين والفنيين وغيرهم، فهؤلاء الخبراء يتحدثون أثناء أدائهم لأعمالهم في القضايا المختلفة، وينقلون بشكل أو بآخر وجهة نظر دولهم حول مختلف القضايا المحلية والدولية، ويكون لهم تأثير ضخم على الرأي العام قد يفوق تأثير بعض السفراء[241].

إنّ الدبلوماسية الشعبية لها مكانة خاصة في الوقت الراهن ويمكن أن نقول إنها حققت النجاحات المتعددة في جميع أنحاء العالم نسبة للتطور والتقدم في الاتصال الذي طرأ على العالم اليوم، ولهذا ساعدت على تحسين

240. فاضل، زكي محمد. 1976م. "الدبلوماسية الذرية ونماذجها المعاصرة". *مجلة السياسة الدولية*. عدد (43): يناير. ص. 145.
241. التابعي، محمد. 1969م. "التطور المعاصر للدبلوماسية". ص. 145.

العلاقات بين الشعوب في مختلف أنحاء العالم.

2.2.5.2 الفرع الثاني: أنواع الدبلوماسية الدولية من حيث السرعة والشكل الذي تتخذه في القانون الدولي

2.2.5.2.1 أنواع الدبلوماسية من حيث السرعة

لا يسير النشاط الدبلوماسي دائماً على وتيرة واحدة من حيث الزمن الذي يسترقه، فقد يكون بطيئاً حيناً وفق عوامل معينة، وقد يكون سريعاً حيناً آخر إذا تغيرت تلك العوامل، ومن هنا يجري التمييز بين دبلوماسية بطيئة أو هادئة وأخرى سريعة أو مكوكية، ولكل منها بطبيعة الحال خصائص متميزة يمكن ملاحظتها من خلال التعرف عليها.

أولاً: الدبلوماسية الهادئة:

ويقصد بها تلك النشاطات الدبلوماسية التي تشغل حيزاً زمنياً ليس بالقصير، حيث تتم ببطء وقد تستمر لسنوات عديدة، وهذا راجع إلى طبيعة السياسة الخارجية التي تخدمها وما تتضمنه من موضوعات تعمل على معالجتها، وإلى أنها – أي الدبلوماسية الهادئة – تهدف دائماً إلى التوصل إلى نتائج ثابتة وغير متسرعة، ولهذا ترتبط هذه الدبلوماسية بعدة أمور هامة أبرزها:

1. سياسة خارجية بعيدة المدى الأمر الذي يعني أن تكون الدبلوماسية جهداً مستمراً ومتواصلاً في إطار تنفيذ تلك السياسة.
2. موضوعات استراتيجية لا يمكن التوصل إلى نتائج إيجابية بخصوصها إلا بعد سلسة طويلة من الاتصالات الدبلوماسية، من ذلك على سبيل المثال موضوع نزع السلاح أو الحد من الأسلحة النووية حيث المحادثات والمفاوضات حولها صعبة ومعقدة للغاية.
3. قضايا اقتصادية هامة كالتنمية والتجارة الخارجية، فهي تحتاج إلى دبلوماسية هادئة وذات نفس طويل ترتكز على إدراك سليم لطبيعة هذه القضايا وما يمكن أن يرتبط بها من تنازلات وتسويات

هي في الغالب حلول وسط[242].

ثانياً: دبلوماسية المكوك:

وهي تلك النشاطات الدبلوماسية التي يجريها وزراء الخارجية أو رؤساء الحكومات والدول خلال فترة زمنية قصيرة لحل ما هو قائم بين الدول من نزاعات، وقد برزت مع الجهود المكثفة التي بذلها هنري كيسنجر بعد أن أخذ يتنقل في رحلات مكوكية بين القاهرة ودمشق وتل أبيب، وتعتمد الدبلوماسية المكوكية على عدة عناصر رئيسية أهمها:

1. القدرات الذاتية للشخصية الدبلوماسية: إذ لابد أن يكون الدبلوماسي على درجة عالية من الثقافة والحنكة لكي يتسنى له إدراك التفصيلات الدقيقة حول عناصر المشكلة والمتغيرات المرتبطة بها، فهو بذلك إمّا أن يحدد تصوره لإمكانيات التسوية أو أن يتلاعب بمتغيرات الموقف في ضوء تصور مسبق للحل[243]، وتتوقف هذه الدبلوماسية كذلك على نجاح الدبلوماسي في كسب ثقة الأطراف التي يتعامل معها.

2. تفكيك المشكلة وتناول إحدى جزيئاتها: فالدبلوماسية المكوكية لا ترتبط بحل شامل لأية مشكلة لأن مثل هذا الغرض يحتاج إلى جهد متواصل عبر سلسة من الاتصالات الدبلوماسية، ولذا فهي تركز على إحدى جزيئاتها إذ إنّ إمكانيات التوصل إلى حل بخصوصها تكون أيسر من منطلق ابتعادها – أي الجزئية – عن التعقيدات المرتبطة بجوهر المشكلة[244].

3. يمكن أن تمهد لسلسلة طويلة من المفاوضات والاتصالات الهادئة.

– عيوب الدبلوماسية المكوكية:

1. قد تؤدي إلى إثارة التوقعات حول نجاح باهر دون مبرر واقعي أو منطقي أو إلى قبول السياسيين كرؤساء

242. زهرة، عطا محمد صالح. *النظرية الدبلوماسية الحديثة*. ص. 126.

243. إبراهيم، سعد الدين. 1975م.*كيسنجر وصراع الشرق الأوسط*. بيروت: دار الطليعة. ص. 115.

244. زهرة، عطا محمد صالح. 2004م. *في النظرية الدبلوماسية*. ص. 128-129.

الدول لاتفاقات متسرعة تتسم بعدم النضج وخاصة إذا تمت في فترة وجيزة جداً.

2. قد تؤدي إلى تسويات بعيدة عن جوهر المشكلة التي تتعلق بها.

3. ترتبط في الغالب برجال السياسة وليس بالدبلوماسيين المحترفين وهذا ما يجعلها موضوع احتجاج أكثر من باحث[245].

2.2.5.2.2 أنواع الدبلوماسية من حيث الشكل الذي تتخذه في القانون الدولي

إذا نظرنا إلى الشكل الذي يتخذه العمل الدبلوماسي فإنه يمكننا أن نميز بين شكلين للدبلوماسية شكل قديم وآخر حديث، يطلق على الدبلوماسية التي تحمل الشكل الأول الدبلوماسية التقليدية، وتحمل الدبلوماسية الحديثة اسم الدبلوماسية البرلمانية أو الديمقراطية[246]، ولكل واحد من هذين الشكلين سمات تميزه عن الآخر، وإلقاء نظرة عليهما يظهر ذلك بوضوح.

أولاً: الدبلوماسية التقليدية:

ويقصد بها تلك النشاطات الدبلوماسية التي عرفتها المجتمعات المختلفة منذ أقدم العصور وحتى القرن الحالي، سواء كانت ثنائية أم متعددة الأطراف[247]، وتتميز الدبلوماسية التقليدية بثلاث سمات رئيسية وهي القدم من جهة، والسرية من جهة ثانية، ومحدودية الأطراف من جهة ثالثة، ويحسن بنا أن نتعرف على هذه السمات:

أ- القدم: تشير الدبلوماسية التقليدية إلى ذلك النمط من الممارسات الدبلوماسية الممتدة عبر العصور المختلفة وفي إطار هذا الاصطلاح يتحدث بعض الكتاب عن الانتقال من الدبلوماسية القديمة إلى الدبلوماسية

245. المرجع نفسه. ص. 129-130.

246. شكري، محمد عزيز. 2016م. *المدخل إلى القانون الدولي العام*. دمشق: منشورات جامعة دمشق. ص. 340.

247. شارل، ثاير. 1960م. *الدبلوماسي*. (ترجمة) خيري حماد. بيروت: الطليعة للطباعة والنشر. ص. 53.

الحديثة ليعبروا عن تضاؤل الصلاحيات التي ظل يتمتع بها المبعوثون الدبلوماسيون طيلة الحكم المطلق باعتبارهم ممثلين شخصيين للحكام، ونظراً لبدائية أدوات الاتصال ومحدودية المصالح التي تحكم العلاقات الدولية، فقد كانت صلاحيات المبعوثين مطلقة وفقاً لهذه الاعتبارات، ولكن مع تغيرها – أي ظهور المؤسسات الديمقراطية وتبعية المبعوثين وتقدم وسائل الاتصال وتزايد مصالح الشعوب وتشابكها – أصبح المبعوثون مقيدين بقوانين وتعليمات هذه المؤسسات وخاصة بعد أن بات من السهل عليهم الاتصال بحكوماتهم بطرق متعددة وفي أي وقت، ويشير آخرون إلى أن هذه الدبلوماسية كانت تجمع بين فن الممكن وفن التوفيق وقت الإكراه، ومن خلال الدبلوماسية التقليدية كانت تجرى التهديدات، وتقيم القوة الحقيقة لكل طرف[248].

ب- السرية: تعتبر السرية أهم سمة للدبلوماسية التقليدية، ولهذا توصف بالدبلوماسية السرية فقد كانت الاتصالات الدبلوماسية تتم بمنتهى السرية، كما أنّه لم يكن يعلن عن المعاهدات والاتفاقات التي يتم التوصل إليها، وما يبرر السرية هو أن الغاية من الاتصالات الدبلوماسية هي عقد المحالفات بين بعض الدول ضد دول أخرى، ومع أن الدبلوماسية السرية قديمة قدم الجماعات السياسية إلا أنها لم تصبح ظاهرة واضحة المعالم إلا في العصور الحديثة وبالتحديد بعد نشأة الدول القومية الأولى وهي تنشط تحديداً في الأوقات الحرجة[249].

ج- محدودية الأطراف: يغلب على الاتصالات عبر الدبلوماسية التقليدية أنها ثنائية، ومع ذلك عرفها العالم عبر العصور من خلال ارتباطاتها بين أكثر من دولة كما في مؤتمر أسبرطة عام 432 قبل الميلاد، ومؤتمر فينا عام 1815م، إلا أن هذه الاتصالات والارتباطات ظلت محدودة حتى أن مقلد يعتقد أن هذه الدبلوماسية تعني ذلك النمط من الممارسات التي سادت في أثناء الفترة التاريخية التي كانت القرارات تتخذ فيها من قبل مجموعة محدود من القوى الأوروبية الكبرى[250].

248. مقلد، إسماعيل صبري. 1979م. *الاستراتيجية والسياسة الدولية*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية. ص. 315.

249. زهرة، عطا محمد صالح. 2004م. *في النظرية الدبلوماسية*. ص. 119-120.

250. مقلد، إسماعيل صبري. 1979م. *الاستراتيجية والسياسة الدولية*. ص. 315.

ثانياً: الدبلوماسية البرلمانية:

وهي صورة متطورة لدبلوماسية المؤتمرات ويطلق عليها البعض لفظ الدبلوماسية الجماعية أو الدبلوماسية الديمقراطية ويقصد بها تلك النشاطات الدبلوماسية التي تتم في أروقة المنظمات الدولية، وقد بدأت بقيام عصبة الأمم وتطورت في عهد هيئة الأمم المتحدة، حيث تبلورت ملامحها مع قيام هذه المنظمة بأعمالها، فبعد أن تبنى المجتمع الدولي مبدأ العلانية في العلاقات الدولية بالنص في ديباجة عهد عصبة الأمم على "أن تقوم العلاقات بين الدول على أساس العلانية والصراحة والعدل" ظهرت الدبلوماسية المفتوحة لتصبح أحد مميزات أعمال هذه المنظمة الدولية، ومن مظاهرها[251]:

1. قيام مؤتمر دبلوماسي دائم لجميع الدول، يجتمع أعضاؤه على أساس المساواة التامة وفي دورات عادية منظمة، أو غير عادية، يحدد شروطها ميثاق العصبة، وتتم مناقشة القضايا الدولية بشكل صريح وعلني.

2. تسجيل المعاهدات الدولية ونشرها فقد أكد ميثاق العصبة على وجوب تسجيل المعاهدات في سكرتارية العصبة وإعلانها في أقرب فرصة ممكنة، وعلى أن لا تكون للمعاهدات صفة الإلزام إلا بعد تسجيلها، وفي هذا نبذ للاتفاقيات السرية، والدبلوماسية البرلمانية كنوع من أنواع المفاوضة الجماعية تخضع لأربعة عوامل مجتمعة هي[252]:

أ. هيئة دائمة ذات مسؤوليات وأهداف كبيرة.

ب. مناقشات علنية تنقلها وسائل الإعلام إلى الرأي العالمي.

ج. قواعد وإجراءات معينة تنظم سير المناقشات.

د. قواعد منظمة لنتائج المناقشات تبدو في اتخاذ قرارات معينة تصدر بعد تصويت الأغلبية.

---

251. فتح الباب، حسن. 1976م. *المنازعات الدولية ودور الأمم المتحدة في حل المشكلات المعاصرة*. ص. 165.

252. المرجع نفسه. ص. 310.

سمات الدبلوماسية البرلمانية:[253]

1. العلنية: حيث يجري طرح القضايا الدولية علانية وبكل صراحة في المنظمات الدولية، وتستطيع كل دولة التعبير عن وجهة نظرها حول أية قضية تطرح في هذه المنظمات.

2. الديمقراطية: حيث يستطيع ممثلو الدول من خلال فن الخطابة شرح وجهة نظر بلادهم بكل حرية

3. الجماعية: حيث تجري الدبلوماسية البرلمانية في أروقة المنظمات الدولية وخاصة هيئة الأمم المتحدة.

4. تعدد مجالات النشاط الدبلوماسي: مع توسع نشاطات هيئة الأمم المتحدة وظهور العديد من المنظمات الدولية أخذت تطرح مشكلات عديدة شملت السياسات الإقليمية، والأزمات الدولية، ومشكلات البيئة، والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية، ومع ذلك هناك من يرى أن يؤخذ على الدبلوماسية البرلمانية[254]:

أ. أنها تضع الحكومات تحت الضغط المباشر للرأي العام الأمر الذي قد يجعلها تتخذ مواقف متصلبة لا تقدر على مواكبتها.

ب. أنها تؤدي إلى تفتيت الرأي العام حول المشكلات المطروحة بين أغلبية في اتجاه، وأقلية في اتجاه آخر، مما قد يؤدي إلى عدم حل المشكلات أو حدوث مزيد من التوتر حولها.

ج. أنها تعتمد على توجيه الاتهامات وتبتعد عن أصول الدبلوماسية الهادئة القائمة على المنطق والإقناع في جو يسوده الاحترام المتبادل، ولكن ترد على هذه الانتقادات ملاحظتان وهما:

- طالما أن مهمة الدبلوماسية الدفاع عن المصالح الحيوية للشعوب فإن إخضاعها للرقابة يعد عملاً إيجابياً.

253. مقلد، إسماعيل صبري. 1979م. *الاستراتيجية والسياسة الدولية*. ص. 319.

254. المرجع نفسه. ص. 320.

- إن تطبيق الديمقراطية عند مناقشة بنود المواثيق والمعاهدات بحيث تقف عليها القوى الشعبية يتيح المجال لإقناع الشعوب بمبررات تلك المواثيق والمعاهدات ومن ثم تقبلها والتقيد بها إنّ الدبلوماسية البرلمانية أسهمت إسهاماً كبيراً في دفع العلاقات الخارجية بين الدول، وأصبحت لها أهمية كبيرة، بل يسعى البعض لتوحيد البرلمانات، والاتفاق فيما بينها لإنجاح العمل السياسي المشترك.

نستخلص عند المقارنة بين أنواع الدبلوماسية السابقة أن كل نوع منها ينقسم إلى أنواع مختلفة، وكل منها يسهم إسهاماً فعالاً في الدبلوماسية، وله أهمية خاصة في الدبلوماسية ومكانتها، مما ساعد على تطور الدبلوماسية ورقيها، فبالنسبة لأنواع الدبلوماسية من حيث عدد الأطراف المشاركة فيها فهي إمّا ثنائية أو متعددة الأطراف، وكل منهما له دور في تطوير الدبلوماسية مما ساعد في تطوير العلاقات الدبلوماسية بين الدول، وأما عن الدبلوماسية من حيث الجهات التي تمارسها فهناك ثلاث جهات تمارس العمل الدبلوماسي ولذلك فهناك ثلاث أنواع من الدبلوماسية وفقاً لهذا المعيار: دبلوماسية المبعوثين، دبلوماسية القمة، والدبلوماسية الشعبية، ولكل واحد من هذه الأنواع ميزات يمتاز بها مما ساعد على تطور العمل الدبلوماسي في المجالات المختلفة. وأما عن أنواع الدبلوماسية من حيث موضوعاتها فيمكن التمييز في هذا الخصوص بين خمسة منها: دبلوماسية المحالفات، الدبلوماسية الاقتصادية، الدبلوماسية الوقائية، دبلوماسية الأزمات، والدبلوماسية الثقافية، وهذه الأنواع لها أهمية كبيرة ومهمة جداً في الوقت الراهن بين الدول؛ لأنها تساعد على تقوية العلاقات، وتطوير أواصر الصداقة بين الشعوب.

وعن أنواع الدبلوماسية من حيث الشكل الذي تتخذه يمكن أن نميز بين شكلين للدبلوماسية شكل قديم وآخر حديث، وكل من هذين النوعين يؤدي دورًا فعّالًا في العمل الدبلوماسي، وبالنسبة لأنواع الدبلوماسية من حيث السرعة يمكن التمييز بين دبلوماسية بطيئة أو هادئة وأخرى سريعة أو مكوكية، ويستخدم

أي نوع من هذه الأنواع في الوقت المناسب له، والوقت الذي يتطلبه ذلك النوع، أي أن كلّا منهما له مكان ومجال كبير في العلاقات الدولية، وبعد كل هذا نجد أنّ كل هذه الأنواع مرتبطة ببعضها البعض، وأن غياب أي نوع من هذه الأنواع وأقسامه المختلفة يكون هناك نقص في مجال العمل الدبلوماسي وأنواعه المختلفة، وتكون هناك ثغرة واضحة في أنواع الدبلوماسية السابقة.

2.3 نظريات العلاقات الدبلوماسية في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي

تتطلب النظرية العلمية موقفاً علمياً، وهي تفسير شامل لظاهرة أو مجموعة ظواهر محددة في عناصرها تساعد على معرفة حقيقة الشيء وواقعه، وتهدف نظرية العلاقات الدولية والدبلوماسية إلى تفسير العلاقات الاجتماعية وشرحها بصورة عامة والعلاقات الدولية بصورة خاصة، وليس لها مواضيع بحث خاصة مميزة بها عن بقية العلوم الاجتماعية؛ لكون جميع هذه العلوم تهتم وبدرجات متفاوتة، –كالعلاقات الدّوليّة –، بدراسة المشاكل الدولية. وأن النظام الدولي الذي يحدد طبيعة العلاقات الدولية والدبلوماسية ليس كُلاً متكاملاً، إنما تسوده الخصوصيات وأحياناً التناقضات. لذلك تعددت النظريات في العلاقات الدولية وتنوعت في تحديد الأساس التي تقوم عليه.

2.3.1 نظريات العلاقات الدّبلوماسيّة في الشّريعة الإسلاميّة

إنّ نظريّة الإسلام السّياسيّة أصبحت اليوم لُغزاً من الألغاز، وخليطاً من أجزاء متناقصة يستخرج منها النّاس ما راق لديهم، فالحاجة الماسّة الآن إلى أن نُدقّق في المسألة ونكشِف الغطاء عن وجه "نظرية الإسلام السياسية"؛ لِكي ينقشع بذلك هذا الظّلام الفكريّ الضّارب أطنابه في المجتمع، وتلجم بذلك أفواه من أعلنوا سفهاً "إنّ الإسلام ما جاء للمجتمع بنظام اجتماعي ولا سياسي أصلاً" فنخرج بذلك نوراً للذين يتسكعون في ظلمات العصر حائرين لا يهتدون، وهمُ اليوم في أشد الحاجة إلى مثل هذا النّور، وإن كانوا لا يشعرون

بحاجتهم إليه، ومن جهة تعتبر نظرية العلاقات الدّولية والدّبلوماسية مُنتج معرفي غربي ينتمي إلى العلوم الاجتماعية الغربية بامتياز من حيث الأسُس المعرفية، والنّظرة الوجودية ومَنهجيات البحث، ومِن جهةٍ أُخرى يعرف الإسلام كعقيدة ومنهاج حياة، أو نِظام أخلاقي عام. وتقودنا هذه النّظرة الشّمولية إلى التفكير في شكل العلاقات بين المجتمعات البشرية في نطاق أوسع من علاقات الدّول الإسلامية مع بعضها البعض، أو في إطار أنظمتها الداخلية، التي يمكن أن نصيغها في عِبارةٍ أشمل "الإسلام والعلاقات الدّولية والدّبلوماسية" التي قد يعترض عليها الكثيرون "لماذا الإسلام والعلاقات الدّولية والدّبلوماسية"، وبِبساطةٍ وكوننا مسلمين ونرغب في فهم العلاقات الدّولية والدّبلوماسية لا يمكننا فهمها دون الاعتماد على مصادر التّشريع الإسلاميّ "الكتاب والسّنة"[255] هذا من جهة، ومن جهةٍ أُخرى لا نعلم كيف يستطيع الباحث المسلم دراسة العلاقات الدّولية والدّبلوماسية بمنأى عن فهم السُّنن الكونيّة الحاكمة للعلاقات البشريّة. فَمن المبادئ التأسيسية للإستراتيجية الإسلامية في مجال العلاقات الدّولية والدّبلوماسيّة، القيم والموجهات العقدية والأخلاقيّات العمليّة والمستمدة من المصدر الأساسي للإسلام "القرآن والسُّنة"، وهي من المفترض أن تستند إليه النّظريات والرؤى والمواقف التي تتبناها الجماعات والنُّظم والحكومات في علاقاتها الدّولية والدّبلوماسية، وأن تلتزم بها قبل أن تدعو غيرها إليها من ناحية، وأن يقاس على هذا الإطار سلوكها الفعلي في هذا المجال من ناحيةٍ أخرى[256].

إنّ أصول الرّؤية الإسلاميّة للعالم والعلاقات مع الآخرين تنبعُ من أصلٍ عقدي إيماني هو التوحيد الذي يعني الإقرار بوجود الله وبوحدانيته سبحانه وتعالى، وأنّ المعرفة السّياسيّة في التّصور القرآني تستوعب وتتجاوز جملة المفاهيم السّياسية السّائدة في المفهوم الوضعي للمعرفة السّياسيّة، ولاسيما قِصر المفهوم الوضعيّ للمعرفة السّياسية محدداً في محاولة قهر الطّبيعة والسّيطرة عليها، ممّا يجعل الإنسان وفقاً لهذه الفكرة الوضعية سيّداً للكون

255. أبو الأعلى، المودودي. 1950م. *نظرية الإسلام السياسية*. د. م.: منبر التوحيد والجهاد. ص. 2.

256. سامح، صلاح محمد. 2014م. "إستراتيجية نظرية الإسلام في العلاقات الدولية". *سودارس*. https://www.sudaress.com/sudanile/65583.

الذي يشغل مركزه، ومما كانت نتيجته في الفلسفات السّياسية المعاصرة الوقوع في أزمة التّمركز حول الذّات، وزيادة النّزاعات الفردية والأنانية والمذهب الفردي اللّيبرالي، وثُنائية الأنا والآخر هي جملة الإشكالات التي لا يُمكن تجاوزها إلا بالرّجوع إلى النّظرة التّوحيدية المقررة في الوحي المنزل، والقائلة بأنّ الله هو سّيد الكون وخالقه، والله تعالى متجاوز ومفارق لعالم الظّواهر المادية؛ أمّا الإنسان فَمُستخلف من قِبل الله تعالى في الكون، والله أنزل الوحي هدايةً للعقل الإنسانيّ في حياته الاستخلافيّة حتى لا يَفسد الكون بعد صلاحه، وهو الرّاجع إلى الله يوماً ما لينال جزاءه ثواباً أو عقاباً.

إنّ ربط النّظرية السّياسية المعاصرة بالمنهج العلميّ التّجريبيّ لا يعني تخليصها نهائياً من النّظريات الفلسفية ومن الأحكام القيّمة، ذلك أنّه ما مِن نظامٍ سياسيّ إلّا وللفكر الذّاتي وللقيم والتقاليد وبصفة عامّة لواقع مجتمعه الحضاري والثّقافي والرّوحي دور فعّال في بنائه، ونفس الشّيء بالنّسبة للسّلوك السّياسي للأفراد والجماعات، بل إنّ المنهج العلمي التّجريبي ذاته يقتضي لِفهم الظّواهر والنّشاطات السّياسية، ولتفسير الأحداث تفسيراً علمياً إلماماً واعياً بتلك العوامل جميعاً، فنحن لا نستطيع أن نفهم نشاطاً سياسياً أو ظاهرة سياسيّة ما، أو "حدثاً سياسياً معيّناً" إلّا في ضوء واقعها الاجتماعي والاقتصادي والحضاري والثّقافي والرّوحي وهكذا.[257]

من هنا نستطيع القول بأنّ ربط "النّظرية السّياسية" في عصرنا بالمنهج العلمي التجريبي لا يعني تجريدها من كل ما ليس علماً تجريبياً. ذلك إنّ العلم التّجريبي ذاته يعني بالضّرورة ولمجرد كونه "موضوعياً" أن يكون ملماً بكل عناصر الواقع الذي يبدأ منه، وهي عناصر يشيع فيها "القيمة" بل إنّ مجالات "السّياسة" مجالات لا دورَ للعلم التّجريبي فيها، من ذلك أن العلم لا يحدّد للمجتمعات أهداف نُظمها السّياسية فهذه من عمل الفكر الذّاتي، ومن عمل الأيدولوجيات والعقائد، وإنّ المؤمنين بأيدولوجية معيّنه أو عقيدة معينة، هم الذين يتصوّرون

257. المرجع نفسه.

أهداف النّظام السّياسي لمجتمعهم مُستوحين من الأيدولوجيات أو العقائد. فلا يحتكمون في هذا التّصور لنتائج المعرفة العلميّة. هذا إلى جانب ما يلجأ إليه عُلماء السّياسة في تفسيرهم للظّواهر السّياسية تفسيراً علمياً، وذلك باتخاذ بعض الأفكار الذّاتية للفلاسفة فروضاً أولية، يعملون على تحقيق صِحّتها أو رفضها؛ بعرضها على الواقع عن طريق الملاحظة والتجريب.

إذن فالأمر يقتضي إعادة نظرٍ وتناولاً جديداً من خلال سلسلة من المراجعات النّقدية لكثير من المسلمات لمعرفة الثغرات والنتائج؛ وذلك ليتمكّن العقل المسلم المعاصر من التّخلص من التّناقضات المحدثة التي أتى بها العقل المستلب المعاصر من بين المقولات المستوردة من العلم التّجريبي الحديث، وبين الواقع المشهود والتّجربة المعاشة المتردية. وفي ضوء الملاحظات السّابقة، سوف تُركّز الدّراسة على بيانِ المبادئ العامّة للنّظرية الإسلاميّة في العلاقات الدوليّة، كما ترشد إليها أصول الشّريعة من القرآن والسّنة النّبوية الصّحيحة، مع ملاحظةٍ أساسيةٍ هي أنّ ما يَرد بشأن العلاقات الخارجيّة من قِيم ومبادئ عامّة، لا يقتصر الأمر به على هذا الشأن الخارجي فقط، وإنّما ينصرف أيضاً إلى كافة الشّؤون الدّاخلية "الفردية والجماعية"؛ حيث إنّ من أهم خصائص نظرية القيم الإسلاميّة هي وحدة معايير التّعامل على كافة المستويات، فإذا كانت "العدالة" إحدى قيم العلاقات الخارجية، فهي أيضاً وبالأساس إحدى قيم العلاقات الدّاخلية بمختلف تفرعاتها وتفاصيلها، وكذلك بالنّسبة لمبدأ الوفاء بالعهد، والحريّة، والتّعاون،...إلخ، ولا تعرف النّظرية الإسلاميّة ظاهرة ازدواجية المعايير التي تتسم بها معظم السّياسات الدوليّة المعاصرة، وخاصّة تلك التي تُمارسها القوى الغربية، انطلاقاً من مصالحها الخاصّة تجاه بقية دول العالم وشعوبه، دون التّقيد بأيّة قيم أو مبادئ أخلاقية، أو مُثل عليا.

2.3.1.1 المبادئ العامة للنّظرية الإسلاميّة في العلاقات الدّولية

هذه المبادئ العامّة للنّظرية الإسلاميّة في العلاقات الدّولية التي يجب أن نلتزم بها في الوقت الحاضر، وهي المبادئ التي تؤطر الحراك الإسلامي الدولي تجاه بيئة أو نظام ومؤسسات المجتمع الدولي، والتي منها "المنظمات الدولية المعاصرة"، تتلاقى في أحيان كثيرة مع طبيعة المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وهي منبثقة من النظام التشريعي الإسلامي، وتعبر عن جزء من سلامته ومنطقيته وصلاحيته. ويعتبر تناول هذه المبادئ العامة جزءاً من عملية توضيح طبيعة القواعد العامة الإسلامية، التي تحدد ماهية الرؤية والحراك الإسلامي تجاه المنظمات الدولية المعاصرة.

1- إنّ كلّ المجتمعات البشريّة لها علاقات مع بعضها البعض ومع غيرها أيضاً، وأنّ ما يحكم هذه العلاقات لم يكن منضبطاً، فهو لم يكن ينطبق على كل رعايا الدّولة، سواء عند الإغريق أو الرّومان، أو الهنود أو اليهود، فقد كانت هذه الأقوام متمايزة عن غيرها. ويعتبر احترام العهود والمواثيق جزءً أصيل في النظرية الإسلامية في العلاقات الدولية أو التعاون الدولي، وإن عقد المعاهدات، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية أو غيرها، بما يخدم الإنسانية، هو ضرورة أساسية ضمن آلية التعاون على البر والتقوى وإعمار الكون. وبالتالي، فإن التفاعل الإيجابي تجاه المنظمات الدولية التي تهدف لتحقيق العدالة والسلام، وإعمار الكون، ومحاربة الفساد والظلم والعدوان، ومنع الحروب والصراعات بين الدول، هو جزءاً أصيل في الرؤية الإسلامية من حيث المبدأ، ما دامت في إطار هذه الغايات والمقاصد والأهداف. وهذه الغايات والمقاصد كما أشرنا في السابق حثّ عليها الرسول – صلى الله عليه وسلم – عندما دخل قبل الإسلام في "حلف الفضول" لدفع الظلم، وأقره في مرحلة ما بعد الإسلام، وقال فيه:

«لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ وَلَوِ ادُّعِيَ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ

لَأَجَبْتُ»[258].

2- حين جاء الإسلام امتداداً للهداية البشريّة لم يستثنِ المسلمون أحداً من غير المسلمين، أو دولة من تطبيق القواعد والأحكام الإسلامية التي تربط علاقات النّاس ببعضهم البعض، ولم تحرم أحداً من تلك الحقوق التي يتمتّع بها المسلم، على عكس المجتمعات السّابقة واللّاحقة التي لم تأخذ بتعاليم الإسلام.

إنّ الرسالة الحضارية الإسلامية رسالة عالمية؛ فهي "دعوة عالمية" للإنسانية والبشرية جمعاء، وهذا يقتضي من أصحاب هذه الرسالة الحضارية العالمية، التكليف بالبلاغ بها للمجتمعات الإنسانية والمجتمع الدولي بجميع مكوناته "أفراد، حكومات، دول، منظمات دولية...إلخ". وإنّ مقتضيات "الدعوة" "والعالمية" "والبلاغ" الانفتاح والتواصل الحضاري مع الآخر. أيضاً الرسالة الإسلامية معنية "بعولمة الرحمة"، ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[259]، ولذا بناء العلاقات الدولية أو على مستويات أخرى على أساس من "التراحم"، وهو ما يشكل دافعاً لتحقيق السلام والخير الإنساني. إنّ هذا كله يمثل إطاراً عاماً للرؤية والحراك الإسلامي الدولي تجاه المجتمع الإنساني أو الدولي بمكوناته[260]، والتي منها "المنظمات الدولية" غير الإسلامية، فهذه المنظمات تعتبر غاية ووسيلة للحراك الإسلامي أو للدعوة والبلاغ الإسلامي، فهي غاية من حيث ضرورة إبلاغها بطبيعة ومضامين الرسالة الحضارية الإسلامية، ووسيلة من حيث إنها تعتبر "منبراً دولياً" يساعد أو يتشارك في بعض جوانبه وأهدافه في السعي نحو تحقيق "الخير أو الصالح الإنساني العام"، كما أنها تعتبر منبراً لإبلاغ الرؤية الإسلامية في مختلف القضايا إلى مكونات وأعضاء المجتمع الإنساني. وإن تفاعل الرؤية الإسلامية في هذا المنبر لا ينفي أو لا يعني أن هذا "المنبر الدولي" ليست له قوانينه ولاعبوه الذين يتحكمون في حركته ودوره. كما أن الرسالة

---

258. البيهقي. 2003م. *السنن الكبرى*. ج. 6: 596. باب إعطاء الفيء على الديون ومن يقع به. رقم الحديث: 13079. قال ابن الملقن في البدر المنير: الحديث صحيح.

259. القرآن. الأنبياء. 107:21.

260. الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي. 1998م. *الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم*. دمشق: دار القلم. ص. 133.

الحضارية الإسلامية معنية في رسالتها العالمية ودعوتها بمحاربة الفساد في الأرض، وإعمار الكون، ومقاومة الظلم والعدوان، وهذا يتطلب جهوداً جماعية ضخمة؛ مما يقضي بإقامة تحالفات مع الدول والمنظمات والشعوب المعنية في تحقيق الخير والعدالة للإنسانية، وهو ما تهدف له بعض المنظمات الدولية من الناحية النظرية على الأقل.

3- الدّولة الإسلاميّة هي التي تجرى عليها أحكام الإسلام، وتَسود فيها أنظمته وتشريعاته، ويخضع سكانها لسلطة الدّولة الإسلاميّة. ومما لا شك فيه أن تحقيق الأمن والسلام للبشرية، وتحقيق التعاون والاعتماد المتبادل، والعدالة والخير للإنسانية، والتفاعل الإسلامي مع محيطه الدولي ضمن طبيعة "العالمية" و"الدعوة" و"البلاغ"، والسعي الإسلامي لمحاربة الظلم والعدوان والفساد في الأرض وإعمار الكون، يتطلب كما أشرنا سابقاً جهوداً ضخمة وجماعية، تشترك فيها الأمة الإسلامية مع الأمم الأخرى، ومع الدول والمنظمات الدولية المعنية بتحقيق الخير والصالح الإنساني العام. إن هذا كله يحتاج إلى علاقات تعاون وتحالف وتعاقد بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى؛ حتى نتمكن من تحقيق هذه الغايات والقيم الإنسانية السامية التي يدعو لها الإسلام، وهذه العلاقات والتحالفات تقتضي إيجاد معاهدات واتفاقيات تنظم أشكال هذا التعاون، وتحدد غاياته ووسائله ومجالاته، وتشكل مرجعاً ضابطاً لمنع حدوث المنازعات بين هذه الأطراف. ومن هنا، فإن الإسلام معني تماماً بالالتزام بهذه العهود والمواثيق، التي تعتبر جزءاً من تنظيم العلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية والمنظمات الدولية، والدول غير المسلمة، خاصة وأنه يؤكد على الالتزام واحترام العهود والمواثيق مع الآخر كجزء من حرصه على الصالح الإنساني العام، ومصالح الأمة الإسلامية.

4- الدّولة التي تقوم على أساس التّمييُز العنصري أو اللّون أو اللّسان لن تُفلِح في تسيير دفّة الحكم لرعاياها، إذ لابدَّ أن يَظل الفارق فيها واضحاً بين عنصر الحاكمين وعناصر المحكومين، ومن هنا كان الإسلام وسيظل كذلك شامخَ الرأسِ يعلو ولا يُعلى عليه؛ لأنّه قَضَى على كل ألوانِ التّمييز. وذلك بإقرار

الشريعة الإسلامية وحدة الجنس البشري وانتسابه إلى أصل واحد هو آدم وحواء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾[261] وبدون تمييز في لونه أو عرقه أو دينه. ولذلك، فإن وحدة الأصل الإنساني هذه تقتضي العدل والمساواة في التعامل مع المجتمع الإنساني وأفراده، فالإسلام يدعو للعدل مع الآخرين، حتى لو كانوا أعداءه، بغض النظر عن دينهم، كما أن الدين الإسلامي كفل مبدأ الحرية والمساواة لأفراده، ورفض الاستعباد؛ وإن تحقيق العدل والمساواة والحرية في العلاقات الدولية يعني اتخاذ كل الوسائل الممكنة لمنع الظلم والفساد والتمييز ضد كياناته أو وحداته فيها من جهة، والتعاون مع وحدات المجتمع الإنساني لجعل العدل والمساواة والحرية أساس نظام الحياة وجوهر القانون الذي ينظم حياة المجتمع الدولي من جهة ثانية. وبذلك فإن أي منظمات تحمل في أهدافها ودوافعها الدعوة إلى تحقيق العدالة والمساواة والحرية في المجتمع الإنساني، تعتبر وسائل وأدوات ضرورية ولازمة للمساهمة في تحقيق تلك الأهداف والمبادئ، وبالتالي فإنها تُعتبر متوافقة مع المنظور الإسلامي، وفي نفس الوقت جزءاً من وسائله في تحقيق مبادئه وأهدافه.

5- إنّ الإسلام يُبِيح التّعامل مع غير أتباعه، كما يلزم أتباعه الوفاء بالمعاهدات والاتفاقات التي يعقدونها مع غيرهم، وأنّ الهدنة والمصالحة مشروعة على أن تكون بِقدر الضّرورة؛ لأنّ الصُّلح الدّائم يبطل الجهاد ولا قائل بذلك، ويعد مبدأ التعاون والاعتماد المتبادل سنة من سنن الحياة الإنسانية، وهو ضرورة بشرية؛ حيث إن الإنسان "اجتماعي بالطبع"، لا يستطيع سد حاجاته أو القيام بمهامه أو أهداف وجوده بمفرده، فكان لا بد من التعاون، وما ينتج عنه من عملية الاعتماد المتبادل لتحقيق المصالح المشتركة. وهذا الدين هو دين الفطرة، وهو الملائم لطبيعة الإنسان أو البشرية، فكان من الطبيعي أن تتناسق وتتلاءم أسسه ومبادؤه مع الحياة الإنسانية وضروراتها. ومن ناحية أخرى، فإن التعاون والاعتماد المتبادل هو غاية ووسيلة أيضاً لهذا الدين، قال تعالى:

261. القرآن. الحجرات. 13:49.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[262]، ويتضمن الأمر بالتعاون تقرير الاعتماد المتبادل كسياسة عامة في تسيير العلاقات بين مختلف أطراف الوجود الإنساني بجميع مكوناته، بين الدول أو المنظمات أو الأفراد، إلا أن التعاون والاعتماد المتبادل في ضوء الطرح الإسلامي منضبط بمنظومة القيم والمبادئ الإسلامية الأخرى كالعدالة والمساواة وغيرها، وإلا فقد تحولت علاقات "التعاون" والاعتماد المتبادل إلى نوع من التحالف والتكتلات نحو الهيمنة لصالح القوى وخدمة منافع الأقوياء من الدول[263]، والتي تدفع الإنسانية ثمناً لها. كما أن هذا النمط من التعاون "المرتبط مع القيم" ضمن النظرية الإسلامية العامة للعلاقات الدولية، هو أحد عوامل التطور الاجتماعي والحضاري العام، وهو الذي يؤسس لبناء السلام الحقيقي بين مختلف الأمم والشعوب، ويحد من إمكانيات حدوث النزاعات أو نشوب الحروب والصراعات فيما بينها[264] ويتخذ مبدأ التعاون والاعتماد المتبادل مستويات عدة، بدءاً من الأفراد، إلى الكيانات والجماعات والدول. ومن هنا، فإن المنظمات الدولية هي أحد الكيانات الأساسية المعنية واللازمة لتحقيق "التعاون والاعتماد المتبادل" بين المصالح الإنسانية، وبالتالي هي إحدى الهيئات المعنية أو المستهدفة بالخطاب الإسلامي، الداعي إلى تحقيق التعاون البشري ضمن منظومة القيم الفطرية المنضبطة لتحقيق "الصالح الإنساني العام".

6- الدّولة الإسلاميّة لا تسوّغ التّمثيل بجنود الأعداء، أو تعذيب أسرى الحرب، أو تخريب العامر، أو قطع الأشجار، أو قتل الحيوان إلا لضرورة، كما لا تُجيز التّعرض لغير المقاتلين من شيوخٍ ونساء وأطفال ومرضى. إنّ استخدام القوة من المنظمات الدولية يكون في حالات استثنائية ويجب أن يكون منضبطاً وفق الالتزام بالقواعد التالية: "تحريم الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية، وحماية حقوق الإنسان الأساسية، والحق في

---

262. القرآن. المائدة. 2:5.

263. مالكي، محمد خلدون أحمد نورس. 2010م. *تعدد الخلفاء ووحدة الأمة فقهاً وتاريخاً ومستقبلاً*. (رسالة دكتوراة). جامعة دمشق. ص. 389.

264. غانم، إبراهيم البيومي. 2001-2002م. "المبادئ العامة للنظرية الإسلامية في العلاقات الدولية". *مجلة الاجتهاد*. العددان (52 و53). ص. 207-208.

تقرير المصير، وكذلك تحريم العدوان واستخدام القوة في تسوية النزاعات"، ويمكن القول عموماً إن هذه القواعد، التي تخضع لها المنظمات الدولية المعاصرة، تتوافق مع المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، سواء من حيث حفظ الضروريات الخمس، "حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال" أو من حيث الالتزام بالضوابط والأسس الأخلاقية التي فرضها الإسلام في الحرب، مثل: عدم قتل المدنيين، أو غير ذلك. وإن كانت مقاصد الشريعة، وكذلك مبادئها وممارساتها في العلاقات الدولية، بالإضافة إلى قواعدها الأخلاقية في الصراعات والحروب، سابقة بمئات السنين على هذه القواعد الدولية الآمرة. من ناحية أخرى، إن هذه القواعد تشكل إطاراً معاصراً أكثر قبولاً وتفعيلاً لتطبيق جوهر مقاصد الشريعة من قبل المنظمات الدولية التي تحتوي أعضاء كافة الأديان والملل. وكذلك تشكل هذه القواعد إطاراً ضابطاً ومقبولاً لممارسات المنظمات الدولية بشكل يتوافق ومقاصد الشريعة الإسلامية ومبادئها الدولية.

7- السّلام والمسالمة هو الأصل في العلاقات بين الدّولة الإسلاميّة وغيرها، وأنّ القتال هو حالة طارئة تقتضيها ظروفٌ معيّنة، لذا فإنّ الإسلام يرغب في العلاقات السّلمية ويحضّ عليها؛ فهو دين محبة وسلام، كما أن الإسلام يحرص في دعوته على بناء علاقاته الخارجية على أساس السلم أو السلام مع الآخرين من غير المسلمين، سواء أكانوا أفرادا أم دولا وكيانات دولية، وذلك هو الأصل في علاقاته الدولية، طالما أن الآخرين لم ينتهكوا هذا المبدأ[265]، وإن "السلم" أو "السلام" في الإسلام هو مبدأ وغاية حضارية كونية، ورسالة حضارية يدور حراكه الدولي نحو تحقيقها لبني البشر أو المجتمع الدولي. ولذلك فإن سياساته وعلاقاته مع المجتمع الدولي تتأطر بهذا المبدأ. وإن كل الأدوات أو الهيئات، مثل المنظمات الدولية المعنية بتحقيق "الأمن والسلم الدوليين"، تمثل نقطة التقاء مع الرؤية الإسلامية نحو عمل مشترك إنساني، يصب في مصلحة الخير الإنساني العام، بكافة

265. عبد الشافي محمد، عبد اللطيف. 1428هـ. *السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي*. القاهرة: دار السلام. ص. 174؛ ميقا، أبو بكر اسماعيل محمد. 1990م. *مبادئ الاسلام ومنهجه في قضايا السلم والحرب والعلاقات الدولية والإنسانية*. الرياض: مكتبة التوبة. ص. 56-68.

دياناته ومعتقداته أو طوائفه، كما "أن السلام العالمي هو الهدف النهائي للنظرية الإسلامية في العلاقات الدولية، والوصول إلى هذا الهدف هو مطلب المستقبل لجميع الأمم، والطريق إليه مليء بالتحديات التي تفوق طاقة أمة بمفردها. وإن الإسلام يعلم كافة البشر أن باستطاعتهم دوماً أن يتشاوروا وأن يتحاوروا ويتعارفوا من أجل اكتشاف الحقول المشتركة فيما بينهم، ولكي يعمقوا إدراكهم للمثل الإنسانية الفطرية التي تجمعهم، وليسهموا معاً في بناء علاقات دولية بناءة تتسم بالإيجابية والموضوعية والمستقبلية، وبالعدالة قبل ذلك كله[266].

8- رغم أنّ الحرب لم تكن الوسيلة الوحيدة لفض النّزاعات بين الدّول، فإنّ الوساطة والتّحكيم بوصفهما إحدى الطّرق السّلمية لتسوية الخلافات أمر مشروع وسائغ في الإسلام، بل إنّه يُشجع عليه ويرغب فيه، وبهذا فإنّ الإسلام يرقى بالإنسان إلى أسمى درجات الحضارة، يحفظ له وجوده ومقومات حياته.[267]

إنّ هذه الأحكام في معاملة المسلمين لغيرهم، وهي بعض القواعد التي أنشأها الإسلام لأول مرة في تاريخ البشرية وفي مجال المعاملات الدولية، بفضْلها يُقيم المجتمع المسلم علاقاته مع غيره من المجتمعات الأخرى على أساس العدالة. وقد وردت هذه القواعد متفرقة في القرآن الكريم، فحرص عليها المسلمون وطبقوها. لذلك، فإن المنظور الإسلامي يرى في المنظمات الدولية، التي تسعى إلى تحقيق السلام والأمن الدولي، والخير الإنساني العام، أنها جزء من مبدأ المشاركة أو المسؤولية الجماعية أو التضامنية، بين الأمة الإسلامية مع الأمم الأخرى لمحاربة العدوان وفض المنازعات عن طريق المفاوضات أو الوساطة ...إلخ، وتحقيق العدالة والسلام والخير الإنساني العام في الأرض. وإن عدم التفاعل أو الفعالية الإيجابية تجاه المنظمات الدولية في إطار تحقيق هذه الغايات سيؤدي إلى الإضرار بالجميع وبوحدات ودول المجتمع الإنساني المسلمة وغير المسلمة، ويؤدي إلى نشر الحروب والصراعات، وخاصة من قبل أصحاب القوة والجبروت والكيانات القوية على الكيانات الضعيفة أو المستضعفة.

---

266. غانم، إبراهيم البيومي. 2001-2002م. "المبادئ العامة للنظرية الإسلامية في العلاقات الدولية". ص. 187-215، 198-215.

267. القطان، إبراهيم. د.ت. *تيسير التفسير للقطان*. ج. 1. د. م: د. ن. ص. 24؛ وسامح، صلاح محمد. 2014م. "إستراتيجية نظرية الإسلام في العلاقات الدولية".

اتّضح ممّا سبق أنّ منهجية دراسة العلاقات الدّولية في الإسلام تستمد من المصدرين الأساسيين للإسلام "القرآن الكريم والسّنة"، وهي التي تُشكل إطاراً مرجعياً ومعياراً عاماً من المفترض أن تستند إليه النّظريات والرؤى التي تتبناها الدّول الإسلاميةّ في علاقاتها الدوليّة. فالدّولة الإسلاميّة بطبيعتها دولةٌ عالميةُ التّوجه، تسمو على الإقليمية والعنصرية القائمة على قوميّة معيّنة.

2.3.2 النظرية المثالية في العلاقات الدولية والدبلوماسية في القانون الدولي

يمكن تعريفها بنظرة مبسطة كالتالي: هي تلك المدرسة التي انتشرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي تقوم على منهجين متوازيين ومتزاوجين، الأول هو المنهج الأخلاقي؛ حيث تؤمن هذه المدرسة بالطبيعة الخيرة للإنسان وأن هذه الطبيعة هي التي تؤدي إلى نتائج نبيلة، وتقوم في نظرتها الأخلاقية على ما يسمى بانسجام المصالح، فمصلحة الأفراد تؤدي إلى تحقيق المصلحة العليا وهذه الأخيرة تضمن مصالح الأفراد في الوقت نفسه، إذن فالمثالية تقوم على أسس الأخلاق والخير والقيم العليا التي تميز الإنسان، وترى في أن ما يسود العالم هو راجع إلى طبيعة البنى والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي يجب أن يؤقلمها الإنسان وفق مبادئه الأخلاقية وقيمه النبيلة. أما المنهج الثاني فهو المنهج القانوني بحيث ترى المثالية بقدرة الجوانب القانونية على خلق الاستقرار والسلام في المجتمع الدولي وضبط مختلف التجاوزات التي قد تؤدي إلى الفوضى والنزاعات، فهي تدعو إلى ضرورة وجود مؤسسة دولية "حكومة عالمية" تعمل وفق مبادئ القانون وتكبح الدول التي تتجاوز مبادئ السلام[268].

وينطلق أصحاب المنهج المثالي في دراسة العلاقات الدولية من مقدمات عقائدية، أو أخلاقية للانتهاء بالتحليل الفلسفي للقول "بما يجب أن تكون عليه العلاقات الدولية حتى تكون فاضلة أو مثالية".

268. حِتّي، ناصف يوسف. 1985م. *النظرية في العلاقات الدولية*. بيروت: دار الكتاب العربي. ص. 20.

إن دراسة هذه العلاقات بهذا المنهج قديمة قدم هذه العلاقات، فمنذ فجر العصور الحديثة والفلاسفة المثاليون يتناولون هذه العلاقات في ضوء القيم المثالية، ويعتبرون "الضمير الإنساني" هو "الحكم الأعلى في القضايا الأخلاقية"، وفي ضبط العلاقات الدولية. وقد ساهمت كتابات المفكر البريطاني "جيريمي بنتهام" في القرن التاسع عشر في بلورة كثير من المفاهيم والمبادئ المثالية. وكان قد وضع هذا المفكر الخير من ضمن مفهوم الأخلاقية العقلانية، وعرفه بأنه "إعطاء أكبر درجة من السيادة لأكبر عدد من الناس"، ورفض المنطق الذي يقول بوجود عدة مقاييس للخير والشر، وركز جيمس ميل تلميذ بنتهام على الرأي العام وأهميته وضرورة الاعتماد عليه[269].

لكن المثالية لم تتبلور كمدرسة لها مفكروها إلا في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، نتيجة معرفة كيف يجب أن يتصرف السياسيون في العلاقات الدولية. لذلك وقف المثاليون موقف الرفض من مجموعة المبادئ السائدة في العلاقات الدولية. مثل مبدأ توازن القوى المرتبط تاريخياً بأوروبا، ومبدأ استخدام القوة في الشؤون الدولية، والمعاهدات السرية للحلفاء، والتقسيم المجحف للعالم خلال هذه الحرب، وطرحوا مبادئ مقابلة تمثلت في الحقوق والالتزامات القانونية الدولية، والتناسق الطبيعي بين المصالح القومية كوسيلة للحفاظ على السلام العالمي، والتركيز على دور العقل في إدارة الشؤون العالمية وإبداء الثقة في الوظيفة التي يمكن أن يقوم بها الرأي العام[270].

إذن تُولي المثالية أهمية كبرى للسلم العالمي عن طريق احترام الرأي العام العالمي، والسلوك الدولي المستند إلى القانون الدولي العام. وكانت القضية السياسية والأخلاقية الأساسية التي واجهتها المدرسة المثالية هي قضية "الفجوة" القائمة في العلاقات الدولية بين الواقع المتمثل بالحرب العالمية، وبين الطموح في بناء عالم أفضل.

---

269. المرجع نفسه. ص. 20.

270. دورتي، جيمس وروبرت بالتسغراف. 1985م. *النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية*. ص. 10-11.

ورأت هذه المدرسة أنه إذا تمكن الرأي العام من أن يقوم بدوره بشكل فعال، فلابد من أن يمنع نشوب النزاعات والحروب؛ لأن نشر المعرفة يسمح لكل إنسان أن يفكر بشكل سليم، وبالتالي فإنّ كل من يفكر بهذا الشكل الصحيح والسليم لابد من أن يتصرف بالشكل ذاته[271].

إن هذه النظرة التفاؤلية لدى المثاليين دفعت بعضهم إلى الدعوة إلى "الحكومة العالمية"؛ تفادياً لأسباب الحرب التي تفترض التناسق في المصالح بين مختلف الأمم، انطلاقاً من انسجام المصالح بين الفرد والجماعة. "فالفرد عندما يعمل لمصلحته الذاتية يعمل لمصلحة الجماعة"، وعندما يدعم مصلحة الجماعة فهو يدعم مصلحته، ويعطي بعض المثاليين دوراً للقانون الدولي في تحقيق السلام العالمي من خلال تطبيق قواعده واحترامها، انطلاقاً من أن المجتمع الدولي هو تركيب لدول سيدة ومتساوية، وأنّ القانون الدولي هو مُصمم "كقانون بين الدول"، فيصبح بذلك المجتمع الدولي محكوماً بنظام قانوني يتضمن مجموعة من القواعد التي تسري على الكافة، والقانون لا ينشأ إلا في مجتمع، فهو إذاً ظاهرة اجتماعية؛ يهدف إلى تنظيم العلاقات بين أفراده وما ينطبق على علاقة الأفراد بعضهم ببعض ينطبق على العلاقات بين الدول[272].

ولكن هذه النظرية المثالية لم تصمد كثيراً أمام تحديات الواقع الدولي وتطور أحداثه، فإذا كانت قد انطلقت من مسلمات أخلاقية وقانونية وعقلانية، واعتمدت على الرأي العام في فهم مسار العلاقات الدولية، فإنها كانت عاجزة عن فهم الأسباب التي تدفع الدول لانتهاج سلوكيات نزاعية أو عدوانية. أي أنها لم تتمكن من تحديد الدوافع التي تحرك الدول نحو العدوان والحرب، وقد اعتبرت النزاعات الدولية التي قامت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، النّاتجة عن قوى الشر بوجود حكام معادين للديمقراطية تهدد السلام العالمي، والأنظمة الديكتاتورية التي تؤمن بلعبة القوة. وأن الدول الديمقراطية الغربية برأيها، هي دول محبة للسلام وتؤثر في الاستقرار

271. حِتّي، ناصيف يوسف. 1985م. *النظرية في العلاقات الدولية*. ص. 22.
272. أبو هيف، علي صادق. 2015م. *القانون الدولي العام*. ص. 18.

الدولي.

لقد جاءت التطورات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، وما نتج عنها من حوادث وحروب، لتدحض هذه الفرضية المثالية، وتبين مدى الخطأ في ربطها بين الأنظمة الديمقراطية الغربية، وتحقيق السلم والأمن الدوليين. وأن "الأخلاقيات والمثاليات التي كان المثاليون يدعون لتطبيقها في فترة ما بين الحربين باعتبارها قيما مطلقة تخدم المصلحة الإنسانية، كانت تعدّ قيماً ثقافية ومجتمعية عند دول معينة، وتخدم بالفعل مصلحة الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، والتي كان لها مصلحة في الحفاظ على الأمر الواقع، وعندما تبدلت مصلحة هذه الدول تبدلت مواقفها من السلام والأمن الدوليين، لتفشل بذلك الفرضيات المثالية في أهم العوامل المؤثرة في تحديد سلوكيات الدول[273]. إنّ فشل المدرسة المثالية ساعد على نشوء المدرسة الواقعية التي جاءت لتدرس ما هو قائم في العلاقات الدولية لا ما يجب أن تكون عليه العلاقات.

لقد جاءت التطورات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها من حوادث وحروب لتدحض النظرية المثالية وتبين مدى الخطأ في ربطها بين الأنظمة الديمقراطية الغربية وتحقيق السلم والأمن الدوليين ويعود سبب فشلها لكونها كانت تدرس ما يجب أن يكون وأهملت ما هو كائن.

2.3.3 النظرية الواقعية وكذلك الحديثة في العلاقات الدولية والدبلوماسية في القانون الدولي

2.3.3.1 الفرع الأول: النظرية الواقعية في العلاقات الدولية والدبلوماسية في القانون الدولي

إن دراسة العلاقات الدبلوماسية بمنهج علمي واقعي، هو من أحدث فروع العلوم الاجتماعية. فلقد أدت الحرب العالمية الثانية والتطورات التي رافقتها إلى تحويل التفكير في العلاقات الدولية والدبلوماسية من المثالية إلى الواقعية؛ أي من القانون والدبلوماسية والتنظيم إلى عنصر القوة، وذلك ببدء انتقال الاهتمام من

273. حِتّي، ناصيف يوسف. 1985م. *النظرية في العلاقات الدولية*. ص. 22.

دراسة المنظمات الدولية والقانون الدولي إلى دراسة السياسة الدولية والأحداث والظواهر السياسية كما هي في الواقع، وليس كما يجب أن تكون، ولقد جاءت الواقعية بعد الحرب العالمية الثانية كنظرية سياسية تهدف إلى دراسة عامل القوة والحروب والنزاعات في فهم سلوكيات الدول؛ كعوامل مؤثرة في علاقاتها ببعض دون أن تهتم بالمُثل في دراسة العلاقات الدولية، وتستقي الواقعية مادتها من التاريخ لتصل إلى تعميمات حول السلوك الدولي، بتركيزها على الدولة القومية كأساس وكوحدة للتحليل. وأن الإمكانيات المتوفرة لها تلعب دوراً هاماً في تحديد نتيجة الصراع الدولي وقدرتها على التأثير في سلوك الآخرين، شريطة إدراك أن قدراتها تتعدى الجانب العسكري المادي. فمقومات القوة القومية للدولة لا تقتصر فقط على بعدها العسكري، بل تشمل مستويات أخرى منها التطور التقني، والأوضاع السكنية، المصادر الطبيعية، العوامل الجغرافية، وشكل الحكومة والقيادة السياسة والإيديولوجية[274].

إن القوة وميزان القوى والمصلحة القومية تشكل جميعها المنطلقات الأساسية للمدرسة الواقعية، وأنها عوامل مؤثرة وثابتة في تشكيل السلوك الدولي. ويعتبر الواقعيون أن ميزان القوى يمثل أحد السبل الهامة لإقامة السلام والاستقرار على الصعيد الدولي، إذ عندما تتساوى القوى بين مجموعة من الدول يكون من المتعذر على إحداها أن تسعى للهيمنة. لاقت هذه المدرسة خلال القرن العشرين عدداً من الفقهاء المناصرين المؤيدين لمنطلقاتها الأساسية، المتفقين جميعاً على أن العلاقات الدولية لا تقوم إلا بين الدول القومية المستقلة، ولكن اختلافاتهم تمحورت حول كيفية قيام هذه العلاقات بين الدول. فقد رأى نيكولاس سبيكمان أن العلاقات بين الدول تمر عبر ثلاثة اتجاهات:

1. التعاون.
2. تسوية الخلافات بينها.

274. انظر دورتي، جيمس وروبرت بالتسغراف. 1985م. *النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية*. ص. 59-60.

3. المعارضات والتناقض.

ولكن لكي تضمن الدول بقاءها عليها حسب رأى سبيكمان، أن تجعل هدفها الأول في سياستها الخارجية هو الحفاظ على قوتها أو زيادة هذه القوة؛ فإنّ القوة في معناها الأخير تعني القدرة على خوض غمار، فإن الدول تؤكد دائماً على أهمية بناء مؤسساتها العسكرية[275].

أما هانس مورغانتو الذي يعتبر من أبرز الذين طوروا النظرية الواقعية السياسية، ومن أكثر منظري الواقعية وضوحاً وصراحة في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية من حيث تأكيده على دور القوة في العلاقات الدولية واعتبارها تعبيراً عن المصلحة القومية، فيرى أنّ السياسة الدولية تهدف إلى ثلاثة أهداف:

1. أنها تهدف للحفاظ على القوة.
2. تهدف لزيادة القوة.
3. تهدف لإظهار القوة.

بذلك يكون مورغانثو قد اعتبر أن القوة أو بصورة أدق التفتيش عن القوة أو الصراع من أجل القوة وسيطرة النفوذ هي أساس كل علاقة دولية، وبرأيه أن جوهر السياسة الدولية مطابق لجوهر السياسة الوطنية، فكلاهما صراع من أجل السلطة. فالعلاقات في المجتمعات الداخلية تتم بين من بيدهم السلطة، وبين من تمارس عليهم هذه السلطة، أي علاقة بين حاكمين ومحكومين. بينما على الصعيد الدولي، فإن العلاقات الدولية تتمايز بحسب مدى تطور وإنماء سلطة الدولة على هذا الصعيد، فالدولة تقاس أهميتها ومكانتها بحسب ما تمارسه في ذلك المجتمع، وخرج مورغانتو بنتيجة مفادها: "أن العلاقات الدولية هي في حقيقتها ليست إلا علاقات قوة لا تخضع إلا لقانون واحد هو قانون المصالح القومية، وأن الإنسان منذ الخليقة مطبوع بغريزتي

275. المرجع نفسه. ص. 69-70.

الأنانية والعنف. والعلاقات الدولية باعتبارها علاقات اجتماعية تمتاز بلا شك بهذه الطبيعة الإنسانية، ويصبح "الصراع على السلطة حقيقة كونية في الزمان والمكان". ولما كانت الدولة ليست إلا تجمعاً من البشر فإن "العلاقات بين الدول تصبح محكومة بالعنف".

ويعتبر مورغانثو أن الدبلوماسية – مثل ميزان القوى – تلعب دوراً هاماً في الحفاظ على السلام، موضحاً أن الشرط المسبق للسلام العالمي هو تطوير إجماع دولي جديد يمكن للدبلوماسية من خلاله أن تلعب دوراً في تحقيق السلام عبر سلسة من التسويات السياسية، غير أن مورغانتو يقلل من أهمية الدبلوماسية في القرن الحالي، إذ إنّ دور الدبلوماسي ضعف إلى درجة كبيرة نتيجة التطور في وسائل الاتصال واستخفاف الرأي العام بالعمل الدبلوماسي وبالدبلوماسيين ونتيجة لنزوع رؤساء الدول لحل مشاكلهم عبر مفاوضات يديرونها بأنفسهم "دبلوماسية القمة"، كما أن زيادة أهمية التجمعات الدولية وإحلال الدبلوماسية العلنية محل السرية، وقلة الخبرة الدبلوماسية لدى الدول العظمى أدى إلى تدهور قيمة العمل الدبلوماسي، ويبدو أن مورغانثو يحبذ دبلوماسية على غرار تلك التي حكمت النظام الدولي خلال الفترة ما قبل القرن العشرين. ويرى أن نجاح الدبلوماسية في التعامل مع موضوع القوة مرتبط بأربعة شروط:

1. ضرورة تجريد الدبلوماسية من الروح الصليبية.
2. إن أهداف السياسة الخارجية يجب أن تحدد في إطار المصلحة القومية وتدعم بالقدر الكافي من القوة المناسبة لها.
3. على الدولة أن تنظر للسياسة الخارجية من نفس الزاوية التي تنظر إليها الدول.
4. على الدول أن تبدأ استعداداً للتفاوض حول موضوعات غير حيوية لها.

ويقول مورغانثو "إذا أردنا أن نعيد للدبلوماسية دورها الفعال فإن عليها ألّا تساهم في تحقيق السلام عبر التسويات فقط، بل وفي بناء إجماع دولي حول أنسب المؤسسات السياسية العالمية التي يمكن بناؤها".

ويرى الكاتب والفيلسوف الفرنسي ريمون آرون أن للقوة دوراً أساسياً لتحقيق أهداف الدول، وأن جوهر هذه العلاقات هو المنافسة والتناقض الذي يقوم بين الدول، وأن العلاقات الدولية في منظوره لا يديرها سوى شخصيتين هما: الدبلوماسي والجندي، فكلاهما في مجال تخصصه، يمثل الدولة محاولاً الدفاع عن وجهة نظرها وفرضها إن استطاع. فالسفير في ممارسته وظائفه هو الوحدة السياسية التي يتكلم باسمها، والجندي على أرض المعركة هو الوحدة السياسية التي باسمها يقاتل العدو، ليرى بعد ذلك أن المفهوم الرئيسي للعلاقات الدولية يتمثل في وحدة السياسة الخارجية بوجهيها البديلين: الاستراتيجية في حالة الحرب، والدبلوماسية في حالة السلام، وينتهي إلى نتيجة مؤداها "مشروعية وقانونية لجوء الدول إلى استخدام القوة في العلاقات فيما بينها"[276].

إن أصحاب النظرية الواقعية في العلاقات الدولية تأثروا بكتابات المفكرين القدامى في الغرب وبفلسفتهم السياسية القديمة وببعض كتابات مفكرين غير غربيين، وخلال القرن السادس عشر كان ميكافيلي قد تبنى نظرية سياسية في العلاقات الدولية تقوم على منطق القوة والدهاء، وذلك لضمان أمن الدولة وبقائها، والدبلوماسية عنده ليست سوى كلمة رقيقة تخفي خلفها شريعة الغاب في الميدان الدولي، كما أن اهتمامه بالقوة واعتقاده بأن السياسة هي التصارع والتنافس على المصالح تركت أثراً كبيراً على الكتاب والمفكرين الواقعيين وجعلته يحتل مكانة مرموقة بينهم[277].

وقد تعرضت النظرية الواقعية لعدة انتقادات بسبب أخذها بمفهوم القوة كمتغير رئيسي في وضع نظام العلاقات الدولية ومتابعة تطوراتها، وإهمالها لباقي المؤثرات الاجتماعية غير المادية كالعوامل الروحية والمعنوية، مما لا يكفي لشرح وتفسير هذه العلاقات، بالإضافة إلى ذلك، هناك صعوبة في تحديد مفهوم القوة بصورة

276. المرجع نفسه. ص. 73-74.

277. فرج، أنور محمد. 2007م. *نظرية الواقعية في العلاقات الدولية*. السليمانية: مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية. ص. 190.

واضحة ودقيقة، بحيث لا يوجد قياس واحد وثابت لقياسه.

2.3.3.1.1 انتقادات النظرية الواقعية

1. إنّها تستخدم مفاهيم سياسية من الماضي كالدبلوماسية السرية، والفصل بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية، كأدوات لإدارة القوة وتحليل النظام الدولي المعاصر.
2. عجز التيار الواقعي عن استيعاب المستجدات البيئية والإقليمية المتماثلة في قيام تعاون بين الصراع والقوة.
3. اختلاف الواقعيون في حد ذاتهم في فكرتهم حول أن الاستقرار والأمن يتحققان عن طريق فكرة توازن القوى.
4. ركزت الواقعية التقليدية على الدولة كفاعل أساسي في الساحة الدولية وأهملت دور المؤسسات الدولية الأخرى في الدور الذي تلعبه في استتباب الأمن.
5. اعتمادها على مفهوم واحد ومتغير واحد في تغير العلاقات الدولية وهو القوة إذ يمكن الاعتماد على عدة متغيرات في تفسير مثلاً الأحلاف.
6. إن النظرية الواقعية تعاني من الأحادية في التفسير، والمبالغة في تضخيم عامل القوة على حساب العوامل الأخرى المؤثرة على التفاعلات في العلاقات الدولية[278].

بالرغم من أن المدرسة الواقعية من أكثر النظريات اتصالا بالواقع الدولي وتعبيراً عن أوضاعه، إلا أن الواقعيّين التّقليديّين في حد ذاتهم ليسوا في ضرب واحد في افتراضاتهم واستنتاجاتهم.

إن هذه الانتقادات وغيرها ساهمت إلى حد ما في إضعاف موقع المدرسة الواقعية وتبيان عجزها في دراسة العلاقات الدولية، مما دفع إلى ظهور مدرسة أخرى في أواخر سبعينيات القرن العشرين وهي "الواقعية

278. المرجع نفسه. ص. 10.

الجديدة"، التي اعتبرت امتداداً لها ولكنها متطورة عنها من حيث انفتاحها على العلوم الاجتماعية الأخرى مستفيدة منها. ونستخلص مما سبق أنّ بيئة السياسة الدولية عند الواقعيين هي بيئة الفوضى والحروب والمعارك حيث لا توجد سلطة عليا من شأنها أن تخضع الجميع لها وأن تحمى وتحقق الأمن الدولي فضلاً عن أنه لا توجد دولة عالمية تحكم العالم كما أنّ علاقة الأمم بالسياسات الدولية تحمل صفة دينامية حيث إنها تتبدل بتبدل السلطان ومتعلقاته الأمر الذي قد يدفع دولة قدما إلى الأمام في صفوف الدول المتصارعة على السلطان بينما قد تحرم دول من الإسهام الفعال في هذا الصراع، وبالتالي الواقعيون الكلاسيكيون ينطلقون من مسلمة رئيسية تتمثل في الطبيعة الشريرة للأفراد، تلك الطبيعة تجعل الأفراد يسعون إلى امتلاك القوة وفرض الهيمنة – كما يرى الواقعيون استحالة استئصال هذه الغريزة – وهذه الطبيعة الشريرة تنتقل من الفرد إلى الدولة حيث اعتبر مورجانثو أن المحرك الأساسي للعلاقات الدبلوماسية هي تلك الأضرار والنوايا الموجودة في الطبيعة البشرية الشريرة وأن هذه الطبيعة الشريرة هي طبيعة صعبة التحليل، فالهدف الأسمى للدول هو الأمن حيث تسعى الدول من أجل الحفاظ على الأمن الذاتي، ومن ثم تبذل قصارى جهدها لكي تحافظ وتعزز وتقوي أمنها بشتى الوسائل، حتى لو تطلب الأمر طلب قوى دول أخرى لكي تساعد على صيانة هذا الأمن، وهذا يعنى أن النظرية الواقعية تنظر إلى العلاقات الدولية والمجتمع الدولي على أنها صراع مستمر نحو زيادة قوة الدولة والعمل على استغلالها بالطريقة التي تمليها عليها مصالحها وإستراتيجيتها بما يحقق في النهاية مصالح الدولة وأهدافها.

2.3.3.2 الفرع الثاني: النظرية الحديثة في العلاقات الدولية والدبلوماسية في القانون الدولي

عندما أيقنت البشرية أنه لا فائدة مرجوة من الصراع الدولي واستخدام القوة في الصراعات الدولية، اتجهت الأفكار بعدها إلى ضرورة استحداث فكر جديد يكون أساسه التعاون الدولي والتكامل لا الصراع.

وبعد أن قطعت البشرية شوطاً كبيراً في هذا المضمون ذهب بعض المفكرين إلى ضرورة الاندماج بين الدول لتحقيق المصلحة العامة الدولية. وكان للقانون الدولي العام دور بارز في تجسيد هذه الأفكار الجديدة،

وبناء على ذلك فإنّ الباحث سيعرض النّظريّة الحديثة القائلة بضرورة التعاون، والتكامل الدولي بين الشعوب والحكومات والدول. وسيعرض بعد ذلك الفقه القائل بنظرية الاندماج الدولي، ثم يبرز موقف القانون الدولي العام في هذا الصدد.

2.3.3.2.1 أولاً: نظرية التكامل الدولي

التكامل هو عبارة عن علاقة بين وحدات، وفيها تعتمد هذه الوحدات بعضها على بعض، وتخلق سوياً خواصاً للنظام تفتقر إليها كل وحدة بمفردها. وقد تعني أيضا كلمة التكامل الدولي الربط الذي يتم بين وحدات منفصلة من قبل، وفي السياسة يكون التكامل علاقة يتبدل فيها سلوك الممثلين السياسيين أو الوحدات السياسية، ويتكون التكامل، شأنه شأن السلطة وشعوب المناطق الجغرافية التي تتم هذه العملية بينها، وقد ينظر للتكامل من زاوية العلاقات الدولية وكذلك الجزاءات الإيجابية، حيث إنّ بعض المنظمات الدولية المالية تقدم المكافآت والمنح والقروض، والمساعدات إلى الدول التي تسعى إلى تحقيق التكامل والتعاون الدولي، وهناك العقوبات الدولية السلبية التي توقع على الدول التي قد تعوق حركة التكامل الدولي، كعقوبة الطرد من المنظمة الدولية أو الوقف. والنظام المتكامل قادر في ذاته على التماسك إلى الحد الذي يمكنه من مقاومة الضغط والشدائد ويدعم اختلال التوازن، ويقاوم عمليات التفكك، والانشقاق[279].

ونظرية التكامل الدولي تقتضي وجود هيئات ومؤسسات عالمية عملاقة، ومنظمات دولية كبيرة عالمية العضوية، مثل: الأمم المتحدة، وتكون متخصصة مثل البنك الدولي للإنشاء والتعمير، حيث تحقق آمال الشعوب في هذا التكامل الدولي؛ لأن التكامل يقتضي التعاون وتوزيع الأدوار والاختصاصات، فضلاً عن ضرورة الالتزام بالمعاهدات الدولية، وتقديم المصالح العامة الدولية على المصالح الخاصة الوطنية.

279. كلود، أنيس. 1964م. *النظام الدولي والإسلامي العالمي*. (ترجمة) عبد الله العريان. القاهرة: دار النهضة العربية. ص. 339-340.

2.3.3.2.2 ثانيا: نظرية الاندماج الدولي

الاندماج هو علاقة بين الوحدات تكون فيها متوافقة التبادل، وتتصف سوياً بخصائص كانت غائبة عنه وهي منفصلة، أو يكون الاندماج السياسي هو اندماج الفاعلين السياسيين أو الوحدات السياسية، كالأفراد أو المجموعات أو الدول فيما يتعلق بسلوكها السياسي، وهكذا فإن الاندماج في العلاقات الدولية يعنى علاقة يحدث بموجبها تعديل في السلوك السياسي للأجزاء، أو الوحدات أو المكونات الداخلية في هذه العلاقة عن السلوك السائد قبل الدخول فيها، وهو دولي؛ نظراً لأن الفاعلين الداخلين في هذه العلاقة هم فاعلون دوليون. وللاندماج جوانب متعددة منها: الجانب السكاني، والموارد الاقتصادية للدولة. ويمكن أن يتحقق من وراء هذا الاندماج أقل خسائر ممكنة مع مراعاة الجوانب المحلية والإقليمية والدولية لعملية الاندماج هذه، ويلزم لنجاح عملية الاندماج عدة شروط لعل أهمها:[280]

1. الملاءمة المتبادلة بين الوحدات، وتقاس هذه الملاءمة بالتفاعلات بين تلك الوحدات كتلك المتمثلة في التبادل التجاري والاتصال الاجتماعي عبر حدودها، سواء الاتصال غير المباشر عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة وخدمات البريد والاتصالات السلكية واللاسلكية، أو الاتصال المباشر عبر حدود هذه الوحدات، وتتوفر هذه الملاءمة المتبادلة عادة عندما تزيد هذه التفاعلات عن الحد المعتاد بين الدول أعضاء المجتمع الدولي.
2. التناسق في الأرباح والخسائر المشترطة.
3. وجود حد أدنى من الهوية المشتركة أو الوفاء المشترك بين الوحدات المندمجة التي تسعى إلى الاندماج.

وعندما يصبح الاندماج الدولي حقيقة واقعة فإن النظام الاندماجي يكون مطالباً بالوفاء بأعمال معينة لعل أهمها:

280. دورتي، جيمس وروبرت بالتسغراف. 1985م. *النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية*. ص. 277.

1. حفظ السلام والأمن بمعنى أن النظام الاندماجي يكون مطالباً بأن يؤدي إلى التسوية السلمية للمنازعات داخله، كذلك عليه أن يتحقق من وحداته ضد أي اعتداء خارجي.

2. تحقيق أكبر قدرات للوحدات المندمجة فيه من الناحية الاقتصادية بزيادة الناتج القومي الإجمالي، أو زيادة القدرات السياسية لأعضائه.

3. إنجاز المهام الموكولة إليه مثل طرد عدو مشترك من أقاليم الوحدات المندمجة.

4. تطوير وخلق هوية جديدة مشتركة بين الوحدات المندمجة بديلاً للسابق بينها قبل الاندماج.

5. وقد يتعرض النظام الاندماجي للانهيار بسبب:

أ. أي زيادة حادة في الأعباء الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية على النظام الاندماجي، أو على وحدة أو أكثر بصفة خاصة إذا تمت هذه الأعباء الإضافية في مرحلة سابقة لتطوير الهوية المشتركة.

ب. أي زيادة في الاتصال وبصفة خاصة الاتصال المباشر بين الأفراد والمجموعات عبر الحدود السياسية القديمة؛ ليكون معدلها أسرع من معدل الاندماج المماثل، أو الثقافات السياسية للوحدات المندمجة.

ج. أي إخفاقات للنظام الاندماجي في إحداث التكيف المطلوب في الوقت المناسب بالنظر إلى الانهيار الذي يحدث لوضع مميز أو سائد لصفوة أو أقلية، وهنا يتعين مواجهة هذا الموقف بالطريقة التي لا تجعل من هذه المجموعات عاملاً سالباً في تماسك النظام الاندماجي.[281]

من خلال ذلك نستنتج أن التجارب أثبتت خلال العقدين المنصرمين من القرن الحادي والعشرين أن سمة الصراع ستبقى سائدة في تفاعلات العلاقات الدولية، وأن مبادئ الأمن الجماعي تتطلب الالتزام باستراتيجيات التعاون وكحد أدنى استراتيجيات التنافس، وأن انتقال الدول لا سيما العظمى من أولوية استراتيجية الصراع إلى استراتيجية التعاون والتنافس أمر مازال في المدى المنظور.

281. المرجع نفسه. ص. 276-277.

بعد دراستنا للنظريات نستخلص من ذلك أنّ الوظيفة الرئيسية لنظرية العلاقات الدولية هي لتمكيننا من تحسين معرفتنا بالواقع الدولي سواء لفهمه فقط أو لتغييره، كما أنها تساعدنا على تنظيم معلوماتنا وعلى اكتشاف معلومات جديدة أكثر دقة، وأنها تزودنا بإطار للتفكير نحدد فيه أولويات البحث ونختار أفضل الوسائل المتوفرة لجمع وتحليل المعلومات، كما أن النظرية تلفت انتباهنا إلى التباينات وتشدّ أذهان الآخرين لمعرفة دقتها أو عدم دقتها من خلال البحوث التي تطبق أو تجري على أساسها، وليس ثمة من نموذج واحد للنظرية، فالنظرية الدولية تتضمن عناصر وصفية وعقلية ومعيارية وتنبؤية، فكل النظريات التي تستخدم في منهجية علمية تعتبر صالحة مع الأخذ في الاعتبار أن النظرية تنتهي إلى العموميات، حيث أن اهتمامها هو بالشمولية أكثر من عنايتها بالظواهر الفردية أو الخاصة.

وفي ختام هذا الفصل، يرى الباحث أنّه إذا كان التظلم الدبلوماسي يعيش الآن عصر الدبلوماسية الحديثة بمكوناتها وخصائصها التي أسلفناها، إلا أن علينا أن ندرك أنه من المنظور النظري والعلمي أنّ الدبلوماسية كأي مؤسسة بشرية في عملية ديناميكية تتعرض لتغييرات الزمن وما يأتي به من قوى ومؤثرات جديدة، لذلك نجد أن كل عصر يمر بتجديد جوهري في أساليبه وصيغه الدبلوماسية، الأمر الذي يتوقع معه بعض مؤرخي الدبلوماسية أن صيغه اليوم من الدبلوماسية التي نصفها بأنها جديدة، يمكن أن تختلف عن تلك التي سنجدها في المستقبل، وهو الاتجاه الذي بدأ فعلاً حيث شرعت وزارات خارجية، خاصة في الدول الكبرى، في التخطيط لإعادة بناء هياكلها ونظمها وأساليب العمل فيها وإعادة تدريب وإعداد دبلوماسييها لكي تواجه متطلبات القرن الجديد بأوضاعه وأدواته وعلاقاته المتغيرة[282].

282 . عبد الفتاح، علي. 2016م. *الإعلام الدبلوماسي والسياسي*. عمان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع. ص. 18-19.